زنبقة الغور

رواية اجتماعية متابعة

بقلم

ملخص ما نشر سابقا

مريم ابنة الراعية ساره من الراهب ايليا س البلاذ هربت من دير الايتام في الناصره لما قاسته من الاضطهاد ولجأت الى القس جبرائيل مبارك فوضعها تحت رعايته وهو صديق قديم لابيها وادخلها بيت اخيه جرجي مبارك للخدمة . وهنالك هام بها عارف مبارك ابن صاحب المنزل فطاعها ووعدها بالزيجة . وقدم المنزل ابن عمه ايوب مبارك ضيفا فاعجب بحسن مريم فقصد غرفتها ليلا ليطارحها الغرام فاساء عارف وفقد غيرة وهرب . فاتهمت مريم بالجريمة واعترفت وهي في السجن بما جرى للقس جبرائيل فانقذها بنفوذه وسار بها تاركا ديره الى طبرية ليستشير عارها . وهنالك اقام واياها في بيت منفرد عند الحمامات المعدنية على مقربة من المدينة وربيا تلد وأقام لها خادمة اسمها ميلانة كانت غاوية فرداها واحسن اليها ولكنها لم تصدقه التوبة . فلما ولدت مريم سرقت ميلانة طفلها ليلا بايهاز اليها الشقية واختفته عندها . واشاعت ان القس جبرائيل رمى الطفل في البحيرة . وبلغ الخبر مريم فتقدمت عليه ولكنه اوضح لها ما يعرفه من حقيقة الامر . الا انها كرهت المعيشة معه فغافلته وهربت الى فرنسا مع سائحة فرنسية استأجرتها لتعلم ابنها العربية . ورآها في الباخرة شيخ سراد فمال اليها وزارها بعد تلك في منزل سيدتها بباريز

... ورافقها مراراً يطوف بها باريس ويريها ملاهيها ويقدمها من اثار عريتها الحلو والمر والظاهر والمكتوم ووعدها بالسعي حتى سيطرا خيراً لتحسين موكزها . ثم عاق بها ابن سيدتها الشاب فتبرمت منه وخشيت سيدتها سوء العاقبة فابتاعت لها جواز سفر الى وطنها . ولكن

مرتم احبت البقاء في باريس فعادت من محطة القطار تفتش عن صديقها بجيب مراد في النزل فوجدت انه قد سافر ولم يترك لها خبراً - فراحت تسعى لتجد لها وظيفة في احد المسارح فاتيح لها ان ترقص في احدها مدة وجيزة ثم أقفل المسرح فسدّت في وجهها طرق الارتزاق فباعت آخر ما عندها من الحلى وسافرت الى مصر · وفي اثناء ذلك كان القس جبرائيل قد وجد ولدها المسروق وعاد يفتش عنها · اما هي فظهرت على مسرح الكازينو في مصر بعد ان بلغته تطلب فيه عملاً فنالت نعمة في عيني الحاج محيي الدين احد صاحبي ذاك الملهى فسعى في اظهارها واشهارها رغبة في الوصول اليها ولكنها خانته وصدته · وقد كان رقصها الجديد مدعاة الى انجذاب الناس وحبباً لنجاح الكازينو وغنى اصحابه فطار صيتها وتوافدت الجماعة على اكتسابه رضاها وقام بها الكثيرون فكانت تصدهم ولم تمحض ودها لسوى الشاعر مصباح · ولما أيس محيي الدين من التقرب منها سافر الى سوريا في عطلة الصيف وسرّ بالسابقين فعلم ما كان في الناصرة حديث نشأتها وقصتها في بيت مبارك وهجر بها الى طبرية وولادتها فعاد الى مصر يسعى في اصقاعها سرًّا

تابع ما قبله

وبعد اسبوع جاءها يقول — البشرى ! لقد امر افندينا ان تمثلي امامه في قصر القبة · وهذا شرف لم تنله راقصة قبلك · لا تشكريني · فالمسرّ الساعي بذلك · ولا الفضل لي · انما نحن نسر لسرورك · ونشاركك ايضاً في ذا الشرف وذا الاكرام ·

رقصت غصن البان في قصر القبة امام سمو الخديوي فاعجبه جداً رقصها واثنى عليها · وجعل اعضاء الاسرة الخديوية واعيان القاهرة يعزمونها بعد ذلك لترقص في بيوتهم · فغرّها الفوز وطمحت نفسها الى المزيد فيه · ومع انها ادركت ان هؤلاء الاعيان يعزمونها كراقصة لا كسيدة من اترابهم نسائهم فظلت طامحة شاغفة ثابتة في ظنها بل في وهمها انها لا بدّ ان تنال

منزلة سامية في الهيئة الاجتماعية . وكانت غصن البان تسر لنفسها ان وعيها الشريفة انما هي شريعة ينبغي ان يحترمها الناس .

ولما جاءها ذات يوم دعوة الى البالو الخديوية من السر تشريفات لم يخطر في بالها ان هذه ايضاً من مكارم الحاج محيي الدين بل من دسائسه. بل ظنت ان آمالها بدأت تتحقق وان ذلك من طلائع ما تستوجبه منزلتها

حضرت غصن البان البالو تستصحب صديقها الشاعر مصباح افندي. فالتقت هناك بصاحب الكازينو . فجاء يسلم عليها ويهنئها ويلاطفها

— نورت القصر ، يا غصن الزان ، يا محجة انظار الناس يا ...

— حسبك من هذا يا سيدي محيي الدين .

— كلمة اقولها لك فمشت واياه الى وردة النخيل وجلسا على ديوان محفوف بانواع الازاهر والنباتات . وتجوم السماء تبدد من سقف الزجاج كالعصفر والاقحوان في سهول لبنان .

— فضلك يا غصن البان على الكازينو عميم . وقد اصبحت ذات منزلة عالية — لا تقاطعيني ولا تعتذري وتتعللي بحسب عادتك . البيت الذي انت فيه لا يليق بك فالادارة تعد لك بيتاً مفروشاً في شارع قصر النيل وترجوك ان تقبلي هديتها فتقيمين فيه ما زلت في القاهرة .

فدهشت غصن البان واغتمت جداً ولم تفه بكلمة جواباً

— ما بالك ؟ أترفضين هدية الكازينو

فرفعت يدها الى جبينها كأن صداعاً اصابها وقالت

— ادركت يا سيدي محيي الدين دقائق صنعك . فعلي والله توبي بفضلك . انك لاظلم الناس ، لاظلم الناس . تكرمني وانت تذلني ، تكرهني وتحسن الي . وانت تعلم اني لا احبك — لا احبك . ارحمني ! ورق لحالي ! ووالله ان ملكتني فلا تملكني حية . اعذر مني حرية قولي وحرية فعلي ، هذه شيمتي .

— اكرمك لتشتمني . ولا بأس . ولكنك مخطئة في ظنك فقد ادركت من زمان ما جهرت به الان فمنعت قلبي عنك . وان ما نلته من الاكرام في هذه الايام هو بعض حقك ولا فضل لي في شيء منه . تأكدي ذلك . وليس البيت هدية مني . قلت لك —

— حسن حسن . اقبله على شرط ان احاسب الادارة به . ادفع الاجرة من كيسي .

— لا فرق . لا فرق .

فقلت غصن البان الى بيتها الجديد فاقامت فيه محفوفة بالخدم متمة بنعيم الدنيا نعيم الاجتماع . وبذلت في فرشه وزينته فوق ما كانت تحصله من المال . واعنى بهوها مجتمع الشعراء والكتاب والباكوات من الطبقة التي قلما تراعي اصطلاحات الاجتماع . ولا يهمهم ان يقال فيهم انهم من اتباع راقصة او مغنية . وكانت تعد لهم المآدب الفاخرة وتدهشهم كل مرة بتحفة جديدة ابتاعتها او بأثر نادر عجيب . وبكلمة اصبحت غصن البان ربة بيت وصاحبة منزلة . لا تعترض كلمتها في المجالس ولا ترد في مخازن

البلد طلابها .

ولكنها مع ذلك ظلت راقصة في اعتبار الناس . وكثيراً ما كانت تتألم حتى من الاقربين اذا تجاوزت حدها . ولا غرو ، فالراقصة في الشرق مهما ارتقت فنها وابدعت لا تستطيع ان تكتسب اكرام الناس الحقيقي المجرد من مشوهات الغرور والادعاء والتعطف . رقصت امام الخديوي فانتقد بعض الصحافيين سموه وطعن بها طعناً ذميماً . حضرت البالو فقيل به هذه بدعة لا تغتفر . فتحت بيتاً في شارع قصر النيل فصاح نساء الاعيان — وغداً تدعونا من اترابها . الى متى هذا الغرور ؟

حاولت غصن البان ان ترفع نفسها اجتماعياً الى منزلة فنها فلم تفلح . فعادت الى نفسها تعيش حرة مستقلة كما يطيب لها . وقنعت بشهرتها التي لا تلبث ان تزول ، ونعيمها المادي الملازم مثل ذي الشهرات وبين حام حولها من المتجذقين والكيسين عشاق جمالها .

ولا يجوز ان تغفل حقيقة هامة في حياتها وهي انها لم تستسلم الى الاقدار تمام الاستسلام . فكانت تسعى دائماً لنيل ما تتوق اليه نفسها وما يتطلبه عقلها وقلبها . فثبتت في الجهاد حتى الفوز او الفشل . وهي وان عاشت لاميالها واهوائها فلم تكن كسائر الراقصات والغواني . ولكنها في ما شاع عنها من امر غرامها وحرية اختيارها اثارت عليها خواطر زميلاتها ومن حُرم مجلسها وهبات قلبها من الطالبين . وقلما همها ذلك . قالت الراقصات — تعيش مثلنا وتترفع علينا . ما شاء الله ! وقال بعض الشبان — ان هي الا

مومسة . وكان الحاج محيي الدين يسمع مثل هذه التهم والفريات فيغضي عليها ويستمر في اكرام غصن البان

— الفصل السابع عشر —

جاء ذات ليلة خادم الكازينو يقدم الى غصن البان بعد ان اتمت رقصها باقة من الورد . فلما وقع نظرها على البطاقة فيها اعقراها هزة مبهجة مزعجة معاً . فاوتدت ثيابها وهي تفكر بمن خدعها في باريس وجفاها وجاء اليوم يجدد عهد الحب . ولكنها مع ذلك لم تكره نجيب مراد وقد اعجبت الآن بجرأته واقدامه . ولما قابلته مرحبة باسمة بادرها قائلاً لا شك انك ناقمة عليّ

— لا لا . وحياتك .

— وحياتك ان امراً هاماً استدعاني ذلك اليوم من باريس ولم اتمكن من ....

فقاطعته غصن البان قائلة — لا ذنب مع استغفار . فقد عذرت وصفحت . قل لي . كيف حالك ؟ ومتى جئت القاهرة ؟ وكيف علمت بوجودي هنا ؟

— جئت القاهرة منذ اسبوع ولما قرأت في الجرائد عن الراقصة الشهيرة في الكازينو قلت هي مريم لا شك .

— اسمي الآن غصن البان .

— نعم يا ست غصن البان . تفضلي .

— الى اين ؟

— الى نزل كنتيننتال نتناول شيئاً من الطعام .

وبينما هما جالسان الى المائدة عاد بحر ، مراد الى موضوع سفره من باريس فقاطعته ثانية تقول — غير الموضوع — لا حاجة يا صديقي للاعتذار — اما قصتي بعد ان سافرت فطويلة اقصها عليك في غير ذا الوقت والمكان

ودخل اذ ذاك مصباح افندي فابصر غصن البان فجاء توآ يسلم عليها

— اهلاً بشاعري العزيز . تفضل . سادهشك بعلمي . البارح زارني احد المشائخ فعلمني آية اتلوها الان عليك — اجلس حيث يوخذ بيدك وتبر ، لا حيث يوخذ برجلك وتجر .

— الحث . واللحن جريمة . تبر وتجر لا تبر وتجر . اذكريني ذلك . فلو سمعك الشيخ لنقض منك يديه .

— النحو والمشائخ سيان عندي . بل النحو مثل المشائخ شعره ابيض . بارك الله لك فيه . اقدم اليك صديقي نجيب افندي مراد من اعيان بيروت

— انعم واكرم ! شرفت بلدنا .

— وحضرته ...

فقاطعها نجيب قائلاً — حضرته بغنى عن التعريف . مصباح افندي شرفت فانست .

— جيتك يا غصن البان بخبر مدهش

— وما هو ؟

— في القاهرة شخص واحد لا يعجبه رقصك

— من هو ؟ قل لي من هو . فقد سئمت من يعجبهم رقصي . فلا شك

ان الرجل ممتاز بعقله ·

— هو واسطة شهير تدّ بك على سببه ·

— افسدت الطبخة · هو شيخ من مشائخ الازهر · ولا عجب

— بل هو قسيس من قسس النصارى يُعلم في احدى مدارس الافرنج هنا

— انعم واكرم بشيخك وبقسيسي · ليتك تركتني في وهمي · فقد مثلت لنفسي رجلاً مثالك او مثل نجيب افندي ووددت التعرف به

فقال نجيب — لو زرت سوريا ورقصت هناك لشاهدت من مثل هذا الرجل المئات والالوف · كلنا في سوريا هذا الرجل · لا ترى في مثل رقصك ما يراه اخواننا المصريون ·

— اني انكم لا تخدعون مثلنا · لتهنأ سوريا بحصافة رجالها ·

— بل لا تتأثر مثلكم · ارجوك المؤاخذة · فقد اسأت فهمي · ارقت والله ثناءً ·

— وانا كذلك ·

فقالت غصن البان ضاحكة — والحمد لله على سلامتي · خطر في بالي المثل السائر — ولكنه لا يليق بهذا المقام · فلا بأس ان تفارقتم الثناء باسمي على شرط ألاّ تشاركوني به · لنشرب سر مصر وسوريا

فقال نجيب مراد — وفلسطين ايضاً ·

فتجهمته غصن البان وقالت على الفور — لا اشرك مع البلاد المقدسة بلاداً

— الحق معك · ولكن القن يا غصن البان يتمدى مثل الدين البلاد ·

ومصر بلاد الفن قديماً وحديثاً · سر سوريا ومصر ·

ثم قال نجيب مراد ليظهر للشاعر انه اسبق الى قلب الراقصة الشهيرة منه — أتذكرين يوم شربنا هذا السر في باريس ؟

فاغتاظت غصن البان ولم تكترث بما قال · وفي تلك الأونة قرب من المائدة رجل نحيل الجسم عدل القامة يناهز الاربعين من العمر حنطي اللون غائر العينين في وجهه اثر الجدري واثار القصف والتهتك · وهو يلبس عوينة إكاكابر الانكليز ويميل بطربوشه حتى حاجبه الايمن فيكاد والزجاجة يتماسان · فابصرته غصن البان قادماً اليها فبادرته وهي جالسة بالسلام · ومدت اليه يدها تقبلها ·

— اهلاً بسعادة الباشا · جئت بوقتك لتخلصني من حجر الرحى · اكاد أسحق بين حب سوريا وحب مصر ، بل بين التجمل والمسايرة · وانت لا تجامل حتى غصن البان · ولا عجب فانا لا احبك ولكني احب حديثك · تفضل · اجلس بيني وبين الشاعر · وأجرني منه ·

ثم قدمت اليه جليسيها وقالت تعرفهما به — صاحب السعادتين الحائز قلبي الرتبتين المصرية والانكليزية بل ولي النعمتين — نعمة الملك ونعمة الامير — سر همت باشا ·

فاحنى سر همت رأسه باسماً ابتسامة الازدراء ولسان حاله يقول متهكماً — بلغت شيئاً وفاتك عنك اشياء · ثم أمر الخادم ان يحضر زجاجة من الشمبانيا وقال يخاطب غصن البان — هل سررت في الاقامة بحلوان ·

— كيف لا وجئت بهذا السعال المكرب ؟ ارجوك ألاّ تذكرني بها .
سر هست باشا يا نجيب افندي عالم أسر ... ما هي الكلمة ؟

— أثري .

— أثري . أثري . أي انه لا يهتم لغير الماضي — الماضي القديم البعيد . يحفر القبور ، وينازل المومياء .

— اخطأت . ذلك القبور الى القصور . فانها اجدر بيت كريم من حي لئيم . وتنازل المخالدات الذكر لا المومياء — المخالدات الذكر عرائس الحب . لا يهمني من الحاضر غيرهن ، والبخور تحرقه في هياكلهن ، والخمر تشرب على ذكرهن ، وما سوى الحب والخمر هلس كله بهلس . الاحتلال الانكليزي ، والحزب الوطني ، ومشائخ الازهر ، ومفتي الديار المصرية ، وتحرير المرأة ، والبالو الخديوية ، ورقص غصن البان هذه كلها تدل على امر واحد هام . وهو ان الناس هرباً من فراغ في قلوبهم وظلام في عقولهم وعقم في نفوسهم يتلهون بالخزعبلات السياسية والاجتماعية وبالتخرفات الدينية والفنية . ترقص غصن البان فنعبث بالعقول والقلوب ، يخطب مصطفى كامل فيطرب الناس ، يتفلسف الشيخ محمد عبده فيسلينا ، يعظ شيخ الازهر فيضحكنا ، تصدر اوامر النظارة الخارجية من « دون ستريت » الى المعتمد الانكليزي فتبعث بنا الى الحمام ، يصدر قاسم امين كتاباً فترتفع اسعار « النسخات » في البلد ، صلى على النبي ! اكتشفت أمس اكتشافاً يزعزع اعتقاد سوء الاء التوابع كلهم لو انهم يعلمون . مددت يدي أمس الى صدر ملكة من ملكات

القراعنة ...

فقاطعته غصن البان هائنة — يا للفضيحة ويا للعار !

— اي والله . جسارة هي بل سوء ادب مني ولكن العلم في بعض الاحايين فضولي . مددت يدي الى صدر الملكة فالتقيت فيه صفيحة من البردي كتبت فيها هذه الكلمات « سأوافيك غداً نصف الليل الى البستان تحت شباك البهو الكبير »

— الله الله ! يا دائم يا كريم !

— نعم . كل ما سوى الحب يا ست غصن البان هلس بلس . كله يزول « سأوافيك نصف الليل الى البستان تحت شباك البهو الكبير » لعمري ان في ذي الرسالة سر الحياة كلها . ولكن فيها ما هو اغرب من « سأوافيك » فيها اسم علمت بعد البحث والتنقيب انه اسم الكاهن الاكبر — كاهن الهيكل الملوكي .

ورفع النظارة الى عينه يثبتها تحت حاجبه وهو ينظر الى غصن البان كأنه يسائلها رأيها . فقالت — وهل واقته الملكة ؟

— واقته الى البستان ورافقته الى قدس الاقداس في الهيكل . ومالت في سريره وأوصت ان تدفن الرسالة معها وفي صدرها . اما هذه الخالدات الذكر تزول الاديان والامم ولا يزول الحب . تتغلب العادات والسياسات وتتغير الازياء والاسماء والحب هو هو — خالد ازلي ابدي . والعاقل لا يهتم في الحاضر لسواه .

— وهل عثرت يا سر هست على مومية راقصة من راقصات الزمان القديم او على أثر من آثار الرقص في الصور والتماثيل ؟

— عندنا كثير منها .

— بالله حدثنا بها .

— غداً ارافقك اذا شئت الى المتحف المصري واطلعك على آثار الرقص وصور الراقصات والراقصين لان الكهان في قديم الزمان كانوا يرقصون والعذارى في الهياكل ...

فقاطعه مصباح افندي قائلاً — ويدعونهن بعدئذٍ الى قدس الاقداس . فمه من الكهان !

— ولكن رقصهم جميل يشابه في بعض حركاته رقص غصن البان

فقال نجيب مراد — واللبنانيون حتى اليوم يحتفلون في الكرنم في عيد مار باخوس اي اله الخمر عند الرومان فيرقصون رجالاً ونساءً كما كان الرومانيون قديماً يرقصون ما يُدعى « باكانال » فيهرجون ويمرجون ويسكرون ايضاً رجالاً ونساء

— يظهر ان كل جميل مبهج في الحياة اصله الدين . كالرقص مثلاً والشعر والتصوير والنحت . كل الفنون الجميلة عند اليونان والرومان قديماً وعند الاوربيين حديثاً انما الدين اوحاها الى نوابغ البشر . ولكن الاديان اليوم قد افلست فلا توحي الى الناس غير الجهل والتعصب والرياء .

— ما اسرعكم الى تجريم الاديان . الجهل يا مصباح افندي ، والتعصب

والرياء من حقائق الوجود الملازمة بمازج الخير شرها . الجهل مفيد . لولاه مثلاً ما احتل الانكليز مصر . وغداً يخيم على جيش الاحتلال ويتسلل الى « دونغ ستريت » فتنتصر على الانكليز قوة سياسية جديدة . لولا الجهل مثلاً ما ظهر مصطفى كامل وامثاله في اوربا من زعماء الشعب المضرقين . ولا غنى للشعب عن البهلوان يسليهم في ساعات اليأس ويضحكهم اوقات الضجر . البهلوان في السياسة او في الدين او في الملاهي ألزم منك يا ست غصن البان . اما التعصب فهو لازم لحفظ التوازن بين الشعوب ، وبين عقائدهم السياسية والدينية . التعصب اساس كل اعتقاد ، والاعتقاد اساس الايمان ، والايمان اساس العمل والعمل — لولا العمل لكانت الارض قفراً بلقعاً . اما الرياء فانه هو الا درع تتدرع بها على لوم اللوماء وجور الامراء . بل الرياء حجاب نسدله على نفس حساسة تأبى السفور في الاجتماعات حيث يختلط الحابل بالنابل ويحتك منكب الصعلوك بمنكب الامير — وها صديقي الحاج محيي الدين اخبث الناس واشدهم تعصباً قادم الينا . يا حاج محيي الدين

فسارع الحاج الى سر همت يسلم عليه معتذراً مستغفراً .

— انبت عليك في حديثي . قلت انك اخبث الناس واشدهم تعصباً — فينبغي ان تشاربنا . هذه الكأس فقط .

— لا اقبلها الا من يد غصن البان .

— تعطفي اذاً يا غصن البان !

— فانك يا سيدي محيي الدين استماع حديث سر همت باشا . فقد

حبب اليها الموت والحب ·

فقال الحاج متهكماً — بل الحب والموت · رحم الله الفارض —

وان شئت ان تحيي سعيداً فمت به شهيداً والا فالغرام له اهل

— ونعم وصرت اود ان اكون مومية من المومیات

— لافش في صدرك عن رسائل الغرام ؟ ها ها !

— دعنا من المزح · فان حديثكم يا سادتي لذيذ مفيد جداً وبالاخص الفتاة جاهلة مثلي · مدحت الجهل يا سر همت اكراماً لي فاهنئني · اودعك ناقمة عليك ·

ونهضت اذ ذاك غصن البان فنهض جلساؤها كل يريد تشييعها الى منزلها · فقال سر همت — نلقي القرعة ·

— لا لا · قد تقع عليك · نجيب افندي يشيعني الليلة ·

وركبت وصديقها القديم عربة اوصلتهما الى منزلها · فدخلا الجنينة والحارس نائم في صندوقه عند الباب فوقفت غصن البان تودع نجيباً · فقال مدعوشاً — أتغيرين عادتك معي ؟

— لا بل هذه العادة · أنسيت باريس يوم كنت تشيعني الى منزلي عند مدام لامار

— ولكني لم أنس —

فقاطعته قائلة — لا لم تنس فوزك بل نسيت مقدماته · نسيت المكالم التي تكلفتها لتنال اربك · وانا لم انسها · فقد اتخذتها شرعة حياتي · دقائق

الحيل يا نجيب تعتفر اذا علمتنا وهذبتنا . وقد غفرت بعد ان ادركت جهلك . وساحفظ لك ذكراً جميلاً في قلبي . ليلتك سعيدة .

ولم تقف غصن البان لتسمع جوابه بل دخلت الى بيتها واقفلت الباب فجاءت الخادمة تعينها في خلع ثيابها وتعد لها الحمام

وفي تلك الآونة طرق الباب طارق فجاءت الخادمة تفتح فاذا بمصباح افندي مضطرب البال مكفهر الوجه يطلب مقابلة سيدته فارتدت غصن البان ثوب الحمام واستقبلته في باب غرفتها .

— أفلا تأذنين لي بالدخول

— لا . لا . اهنئني في مجيئك الآن جئني متجسماً . وهب ان الوجل عندي في هذه الساعة فما حقك علي . ألم أقل لك مراراً انني حرة ، مستقلة ، ولية امري ، ولية نفسي ، امنح من اريد حبي واحرمه من اريد ؟

— وستندمين خطأك وستندمين . انك يا صديقتي لفي ضلال مبين . من تمنحينه حبك فيمنحك حبه يلقي في قلبك مسئولية عظيمة — اذا كنت ذات وجدان . الحب يا غصن البان تقتله الحرية المطلقة كما يقتله الاسر المطلق . اذا احببتك وكرهتني فرحمة الله عليك . اذا احببتني وكرهتك فرحمة الله علي .

— لا ادرك معناك

— أولا تقولين ادخل فاوضح

— لا . لا .

— ألا ن في الداخل من تو، ثريته علي ؟

— ذلك لا يعنيك ·

— ستندمين على ذا التصرف ·

— لا الدم على شيء افعله من تلقاء نفسي · اتركني وحدي

— لو تأكدت انك وحدك ···

— كلمتي شرفي · أترتاب بما اقول ؟

— العذاب يذهب بيقيني · الغيرة تذبح ايماني ·

— واذا ادخلتك تندم · تندم والله · اذا ادخلتك تقتل في ما هو اعز من اليقين والايمان لديك ·

— اما انا واما هو ·

— في دخولك منزلي الليلة خروجك من قلبي الى الابد · ادخل · ادخل · قتش وارح نفسك ·

فدخل مصباح غرفتها وجعل يفتش كالمجنون تحت السرير وتحت الديوان ووراء السجوف ووقف مذهولاً حائراً بل مدحوراً مذموماً ·

— أفلا تخجل الآن ·

— وما أدراني —

— ألم تزل في ريب مما اقول ؟ لقد جنيت على نفسك !

وصفقت كفاً على كف فجاءت الخادمة ·

— شيعي مصباح افندي الى الباب

— الفصل التاسع عشر —

الراهب الذي ذكره مصباح افندي تلك الليلة في نزل كنتيننتال انما هو راهب البحيرة — ذاك الذي كان في طبريا يستحم بحماماتها المعدنية يوم كان القس جبرائيل مقيماً في تلك الناحية ومريم — بل هو القس بولس عمون الذي اجتمع به القس جبرائيل بلبنان . ولما سافر فجأة من طبريا جاء الى مصر يعلم اللغة العربية في احدى مدارس الافرنج . وقد يذكر القارىء ان القس بولس من علماء الكنيسة المصريين . فيلسوف روحي غزير المادة ثاقب الفكر يجمع بين اشد النزعات الدينية والادبية مؤلفاً مقارناً ، يبني الطلعة ، حاد النظرات ، فصيح اللسان ، شديد العارضة . يحمل في عظاته الرنانة على كفر شبان العصر مستشهداً بڤولتير ، وعلى تهتكهم وفحشهم مستشهداً بالقديس اوغسطينوس . وما لبث ان اشتهر في مصر واصبح محترماً معززاً في قومه يشار اليه بالبنان .

ولما ظهرت غصن البان تحدجها الشهرة من كل مكان ، وجعلت الجرائد تنشر الفصول الطوال فيها مطرئة مغرقة ، والناس من علية القوم وعامتهم يلهجون بذكرها ، طفق القس بولس يندد في عظاته بها ويحذر الناس من ذا الجنون بخزعبلات الملاهي والفنون المؤدية الى فساد في الذوق ، وفي الاخلاق ، وفي العقول .

والقس بولس حر الكلمة شاذ الطباع لا يحفل باقوال الناس اذا رام عملاً ولا يهمه انتقاد اخوانه اذا انبرى يناصر ما يظنه حقاً وعدلاً · فقد ذهب ذات ليلة الى الكازينو ليشاهد بعينه رقص غصن البان · فلما ظهرت الراقصة على المسرح في مظهرها البسيط الفتان اعترته هزة اعجاب احدثت في قلبه تأثيراً جديداً · بل استيقظت فيه عاطفة الحنان والوداد — اجل فقد سحر القسيس بزهة كسائر الناس · أوقفت حركات الراقصة حركة المنطق فيه والبيان · افسدت حجته · بلبلت افكاره · ولكنه لم يلبث ان عاد الى علمه وتقاليده — الى معقوله في الاشياء ومنقوله · واستمر يندد برقصها ويحذر الناس من السم في دسم فتها ؛ ومن الشر في سحرها ·

وفي صباح ذات يوم بينما هو ذاهب الى الكنيسة خطر له خاطر استعاذ بالله منه — أحق ما اقول · اعدل ما انا فاعل ؟ ومن هي يا ترى هذه الفتاة من اين ؟ فان بين رقصها ورقص بقية الراقصات فرقاً عظيماً · في رقصها شيء من التقوى ، شيء من العبادة ، شيء من الحزن · أحق ما اقول فيها ؟ أعدل ما انا فاعل ؟

وظلت هذه الافكار تتجاذب معقوله ووجدانه حتى حملته ثانية الى الكازينو · جاء يطلب مقابلة صاحبها الحاج محيي الدين

فادخله الخادم الى الادارة فاستقبله الحاج مرحباً واجلسه على الديوان، فعرّف القسيس نفسه اليه قائلاً — وقد تنلها خبثاً ونفاقاً ممن يندد براقصتكم الشهيرة ويرغب بمشاهدة رقصها ·

فهتف الحاج مردداً وهو يعد سبحته — استغفر الله · استغفر الله · سبحانه تعالى جبلنا كلنا من طينة واحدة — الحاج والقسيس والراقصة · والله سبحانه يحب الجمال ·

— وهل لك ان تطلعني على شيء من امر هذه الفتاة ؟ هل هي من مصر

— لا يا سيدي · لا ·

وجاء اذ ذاك الخادم بالقهوة ·

— تفضل · لا · لا · العفو ! وما الغرض من سؤال سيادتكم ؟

فسكت القس بولس عن الجواب هنيهة ثم قال — سمعت ان اسمها غصن البان انما هو اسم مستعار ·

— هذا صحيح ·

واطرق الحاج قليلاً · ثم نظر الى جليسه نظرة ساحر يدّعي علم الغيب

— نظرة خبيثة مزعجة ·

— اشعل سيكارة — واطرق ثانية ·

— ممنون ·

فرفع اذ ذاك الحاج رأسه فجأة كأنه لقي ما اضاعه او كأنه يسأل جليسه وهل انت الرجل ؟ ثم قال

— صحيح · صحيح · اسمها الحقيقي مريم · مريم · وقصتها عجيبة غريبة · سبحانه تعالى يمنح الاه من يشاء ويحرمها من يشاء · يرفع الوضيع ويخفض الرفيع · فان تشوء غصن البان لمن اعجب الامور · ولا اخشى

ان اطلعكم على شيء من امرها . ولا اكتم سيادتكم — اتأمرون بأركيلة ؟

— ممنون لا ادخن .

— لا اكتم سيادتكم ان تنديدكم بها ينفعها وينفعنا اكثر من مديح الشعراء واطراء الصحافيين . ووددت والله لو ان مشايخنا مشايخ الازهر يقتفون اثركم . مالنا وهذا . مريم يا سيدي ولدت في قرية صغيرة قرب الناصرة . وتربت في دير من اديرة الايتام فيها . وخدمت سنتين في بيت احد الوجهاء هناك . و...

واما الحاج بهامته الى الامام وثبت في جلسته على الديوان وهو يحدق النظر بالقسيس . ثم قال — وحدث لها من الحوادث ما لا يليق ذكرها . حوادث محزنة . محزنة جداً . وجاءت القاهرة من باريس . وهي الان — لا تؤاخذني — ربة الرقص في البلاد . هذه قصتها بايجاز . سبحانه تعالى وهّاب الذكاء . رب النعم والآلاء . يمنحها من يشاء ويحرمها من يشاء . الذكاء نعمة . والجمال نعمة . وغصن البان ...

فقاطعه القس بولس قائلاً — وهل لك ان تدلني الى بيتها ؟

— على الرأس والعين .

وصفق كفاً على كف فجاء الخادم فقال يخاطبه — دل سيادة المحترم —

— لا . لا . لا اكلفه الى ذلك . وليس غرضي ... تكرم بعنوانها فقط

— كما تريد . وأدى اليه ورقة كتب فيها عنوان غصن البان

فاخذها القس بولس ونهض شاكراً مودعاً . فشيعه الحاج محيي الدين

الى الباب . وشيعه بنظره وبفكره الى ما وراء الابواب وهو يعد سبحته ويهز رأسه متأملاً حائراً .

— الفصل التاسع عشر —

جلست غصن البان الى المائدة تتناول الفطور وبيدها بضعة تحاريز جاءتها صباح ذاك اليوم في البريد . ففتحت الاول فاذا هو من سر هست باشا يسألها مرافقته الى المتحف المصري ، وفتحت الثاني فاذا هو من احد الشبان المتيمين فمزقته باسمة ، والثالث من فراش في الموسكي يلح عليها في تسديد حسابه فمزقته واجمة ، والرابع من احد تجار العاديات يتوعدها بالشكوى ان لم تدفع ما عليها فمزقته حانقة ، والخامس — مزقته ، والسادس كذلك ، والاخير وقد ادركت فحواه من العنوان لم تتنازل ان تفضه . وضربت المائدة وهي تقول

— ليتنظروا مثلما انتظر . وكيف لي بدفع ما علي والكازينو لا تدفع ما لي ؟ يا مرجانه ! يا مرجانه !

— نعم يا ستي .

— ألم تسمعي الجرس . من ذا الميكر يا ترى ؟

فراحت الخادمة تفتح الباب وعادت تقول

— الصائغ ستي يطلب مقابلتك .

— ليجيء بعد الغد . بعد الظهر لا صباحاً

فراحت مرجانه وعادت تقف امام سيدتها خجلة مضطربة .

— ما بالك ؟

— هو في الباب يقول اما ان تعيدي الخواتم واما ان تدفعي ثمنها الان

فنهضت غصن البان تحتدم غيظاً ودخلت الى غرفتها وعادت بعلبتين صغيرتين دفعتهما الى الخادمة لتسلمهما الى الصائغ .

— قولي له — وسكتت تحارب غيظها ثم قالت معلمتي تسلم عليك وتعتذر اليك .

وما كادت تنتهي من قطورها حتى قرع الجرس ثانية ففتحت مرجانه الباب واذا براهب يسأل عن غصن البان .

— وما اسم سيادتكم .

— قولي لها ان راهباً من بلادها يروم مقابلتها .

فجاءت مرجانه تخبر سيدتها فقالت غصن البان كأنها تخاطب نفسها — راهب ؟ راهب من بلادي ؟ قد هربت من الرهبان . ولا شك ان ذاك الراهب الذي يندد بي ويرفضني . لا . لا . ثم خاطبت الخادمة — قولي له اني لم ازل نائمة .

فعاد الراهب في اليوم الثاني فقالت له الخادمة بعد ان قابلت سيدتها — الست مشغولة الان ولا يمكنها ان تقابلكم .

فلم يحتمل بذا التمنع والاستكبار وراح ثالثة يطرق باب غصن البان في شارع قصر النيل فكان الجواب فصل الخطاب

— لا رغبة للست بمقابلة سيادتكم .

— لا بأس . لا بأس .

وانثنى القس بولس عمون راجعاً الى مدرسته كاظماً غيظه لائماً نفسه على ذا الاهتمام لراقصة غرة ضالة .

وفي ذاك الصباح بين كانت غصن البان تفض تحاريرها وتمزقها كان عاطف بك والحاج محيي الدين في ادارة الكازينو يتحدثان بشأنها

— أو انت آذنتها ان تبتاع ما تريد باسم الكازينو . تفضل . ودفع عاطف بك الى شريكه ثلاث قوائم من بعض التجار في الموسكي .

— لا بأس . لا بأس . ولا بد من وضع حد لذلك . ادفع هذا المبلغ من اجرتها واكتب الى هؤلاء التجار انا غير مسئولين من الان فصاعداً عما تبتاعه غصن البان .

— بل ارى من الواجب ان نملن ذلك في الجرائد . والا فتصبح غداً شريكتنا . وقد قلت لك ان الاقبال على الكازينو هذه السنة لا يكون كالسنة الماضية . فقد اخطأنا في اتكالنا عليها وحدها . اخطأنا . فالناس يملون كل شيء .

— لا بأس . لا بأس . في الشهر القادم غير اللائحة .

— من رأيي ان نبتدىء منذ الغد . في البلد جوقة من الروائص الافرنسيات

— ولكن وثيقتنا وغصن البان لا ينقضي اجلها حتى آخر الشهر القادم . دعها الان . ولا تفاتحها بالامر .

وركب الحاج محيي الدين عربة يقصد ادارة احدى الجرائد . فابصر

وهو مار بالازبكية الشاعر مصباحاً جالساً في السبلندد بار وحده يشرب الوسكي والسودا . فأوقف العربة وصرف الحوذي وجاء يسلم عليه

— يا مصباح افندي .

— والسلام عليكم . تفضل .

— مالي اراك على شيء من الكمر ؟

— وهل يضني الزمان لابن الثنى يا محيي الدين

— وهل يرضى الشاعر بالشمس والقمر لو سُخرا له يا ترى ؟ سبحانك اللهم ! انت الوحيد يا رجل المقرب من غصن البان الممتع بجمالها وحيها . المقيم بنعيم ....

— حسبك . حسبك . ونادى مصباح افندي الخادم . فطلب الحاج محيي الدين فنجان قهوة .

— وماذا دهاك قل لي . كنت اظن ان الشاعر حليف النصر دائماً في الهوى .

— الشاعر يا محيي الدين يحب حباً وثيق العرى قصير المدى . يحب مرة كالفارض ويعشق دائماً كالبهاء زهير ، يفرغ نفسه في يوم واحد ويعيش مداحياً موهاً حزيناً بقية ايام حياته .

— وهل نبذت غصن البان يا ترى ؟

— بل نبذتني . لقد ذاقت قبلي السم في الثمالة فكسرت الكأس .

— وكسرت قلبها انتقاماً . اتقوا الله ايها الشعراء .

— والله لقد كسرت الكأس وكسرت نفسي · حبها تار يا محيي الدين وحبيب الشاعر نور ·

— ولكن في غصن البان غير جمالها الظاهر ما يحبب مثلك اليها ·

ان مواهب نفسها لها يعجب به اولو الالباب والنهى · ولو اطلعتك على شيء من امر نشأتها لازداد اعجابك بها وحبك لها · هي نابغة مثلك والله · آية من آيات الدهر ·

وجعل يقص عليه ما قصه على القس بولس عمون · فرفع مصباح رأسه مصغياً وابرقت اساريره وجهه · فاستمر الحاج في الاغراء طي التلبيس والاعجاب ·

— وقد أتهمت المسكينة بجريمة ارتكبت بسببها في بيت اسيادها في الناصرة · وسجنت خمسة اشهر · قصتها والله عجيبة ! — وفرّت عاريةً الى طبريا مع راهب يقال انه ابوها · ووضعت هناك ولداً ·

فحملق مصباح عينيه مدهوشاً · أصحيح ما تقول ؟

— لقد سافتني التقادير الى الناصرة في سياحتي الصيف الماضي والناس هناك صغيرهم وكبيرهم يعرفون قصتها · والله احزنني امرها

ونظر اذ ذاك الى مصباح الندي يستطلع ما كمن وظهر فيه من مفعول ذا الخبر · ثم قال وهو راضٍ بما كان

واظن ان اباها اليوم في القاهرة · اي والله · قد يكون ذاك القسيس الذي يندد بها ويرقصها ·

— هذا من اعجب ما سمعت حياتي . وهل اخبرت غصن البان .

— لم اخبر احداً غيرك . الاماجد يا مصباح افندي يسترون العيوب . ولولا ثقتي بك ما اطلعتك على ما اظنك تسره ولا تذيعه . ولكن غصن البان اصبحت الان سيدة نفسها وسيدة الفن . وقد لا يهمها من ماضيها شيء . سبحانه تعالى يمنح آلاءه من يشاء ويحرمها من يشاء .

فنهض مصباح افندي على الفور كأن جاءه الوحي وودع محيي الدين معتذراً وراح مسرعاً الى غرفته بدون الآيات .

والحاج يضحك في نفسه ويقول — ما اغرب اطوار هؤلاء الشعراء . قد يذبح الشاعر مصباح الراقصة غصن البان هذه الليلة . ويرثيها غداً . سبحان الله . سبحان الله .

وفي اليوم التالي نشرت ادارة الكازينو اعلاماً في الجرائد مؤداه انها غير مسئولة عن ديون غصن البان السابقة والحاضرة والمستقبلة . فازداد قلق التجار وحاموا حول الراقصة ملحين ملجين مصرين متوعدين . غداً وبعد غدٍ وبعد بعد غدٍ كلمات لا تسحر التجار . فاصدرت الدعاوى . واصدرت المحاكم احكامها . وبوشر كل في برهة شهر واحد تغيب فيه الحاج محيي الدين عن مصر عمداً . ووقف الدلال في البيت الذي أدبت فيه المآدب الفخيمة . وتاهت فيه غصن البان بضعة اشهر عزاً ومجداً . يبيع بالمزاد ما فيه من الرياش والتحف والاعلاق والآثار . وكانت الجرائد اثناء ذلك تنشر المقالة تلو المقالة في افلاس غصن البان وسقوطها ، معددة دائنيها وعشاقها ،

واصفة تلك المآدب الفخمة التي كانت تأديها لاصحابها ومريديها ، مرددة اقوال الحكماء في القصف والافراط مذكرة ، منذرة .

فطالعت غصن البان بعضها ولم تبالي ولكن مقالة واحدة اثارت كل ما في نفسها من كوامن الغيظ والاسى مقالة عنوانها « مريم الناصرية » علمت من لهجتها واسلوبها انها من قلم الشاعر مصباح افندي قصّ فيها الكاتب قصة غصن البان من حين دخولها بيت مبارك خادمة حتى دخولها الكازينو راقصة . فجاء على ذكر هربها من الدير ، وهربها واحد الرهبان من الناصرة ، وهربها من طبريا . ولم يكتف الكاتب بذلك بل قال انها هي التي ارتكبت الجريمة في الناصرة وسجنت هناك وخلصها معلمها احد اعضاء المحكمة . وانها ابنة راهب من رهبان دير النجاة . وانها ولدت في طبريا ولداً رماه ابوها في البحيرة وغير ذلك من الحوادث التي تفسد حقيقتها الاشاعات وتجسمها الغايات والاحقاد .

احدثت المقالة هذه ضجة في القاهرة وتناقلتها بعض الجرائد في مصر وسوريا وفلسطين . وأمست غصن البان في عارها وبلائها كما كانت في عزها ومجدها حديث المجالس والقهاوي والحانات . وما كاد ينقضي ذاك الشهر الاسود حتى جاءها كتاب من الحاج محيي الدين كلل به مساعيه الحسنة ومكارمه فكان الضربة القاضية عليها . والكتاب فريد في بابه فلا نضن به على القارىء الكريم .

الى العزيزة المحترمة السيدة غصن البان اطال الله بقاءها

نهديك اطيب التحية والسلام . ونأسف جداً لما دهاك من الدواهي . ووالله وددنا لو انها حلت بنا لا بك . ونسأله تعالى ان يحسن سلوانك ويزيل همومك ولقد غمنا جداً تغيبنا الشهر الماضي عن القاهرة . فقد كنا بذلنا في سبيلك النفس والنفيس والله ! ولكنا لا نظن ان امر التجار يهمك . ولا يهمنا . المال يفدى بالمال . ونحن لم نزل كما كنا من محبيك وانصارك ومريديك وما تحتاجينه من المال موقوف لك . ولكن ما نشرته الجرائد غمنا جداً جداً . ونظن ان الجريدة التي نشرت تلك المقالة وفيها من المطاعن بعرضك ما يزعزع الجبال هي مسمومة تجاه القانون . فاذا احببت ان ترفعي الدعوى عليها فمحامي الكازينو تحت أمرك يشهد الله والنبي على ما نقول . لقد غمتنا تلك المطاعن جداً جداً . سوّدت يومنا أدمت فؤادنا .

اما الوثيقة بيننا وبينك فبما اننا متعاهدون سابقاً وجوقة من الرواقص الافرنسيات يرقصن هذا الشهر عندنا ووجودك معهن يضر بهن بل يكسفهن تماماً . فلا نرى الان الى تجديدها سبيلاً .

اطيب التحيات ايتها العزيزة غصن البان من محبك

الحاج محيي الدين

كتب هذا الكتاب بخطه واعاد قراءته مرتين مستحسناً معجباً وبعث به الى « العزيزة المحترمة غصن البان » وهو يردد ضاحكاً قول الفارض —

وان شئت ان تحيى سعيداً فمت به شهيداً والا فالغرام له اهل

وطفق يتمشى ذهاباً وايباباً ويعد سبحته ويقول — اخطأت يا شيخي

يا فارس اخطأت . المرء يقتل من يحب ويعشق . اي والله يقتل من يحب ويعشق . ولكن الاوغاد يقتلون من يحبون بالخناجر ، والجبناء بالسم ، والمجانين بالمسدس . اما الاماجد فبالمكارم والنعم يقتلون من يحبون . نعم نعم . لو سقطت يا غصن البان من مسرح الكازينو ما ضرك ذلك . ولكن سقوطك من قمة الهرم الكبير — من ذروة الشهرة والعز والمجد !— الله . الله !

— الفصل العشرون —

ومس القس بولس عمون بالجريدة الى الارض وقبض على لحيته مفرقاً مفكراً — ينبغي ان اقابل هذه الفتاة مهما كان من امرها . ينبغي ان اقابلها

ونهض من ساعته فارتدى جبته وحمل عصاه وذهب توا الى البيت في شارع قصر النيل . فوجده مقفلاً مهجوراً . لا حارس في الباب . ولا احد في الداخل يلبي الجرس او النداء . الا ان الاطيار كانت تغرد في البستان حوله كأنها ترد قولاً قديماً محزناً . والطلول الدوارس حجرتها الاوانس .

انثنى القس راجعاً فسدد خطواته الى الكازينو تقابل هناك عاطفة بك فاعطاه عنوان غصن البان الجديد . فجاء الناحية حول البركة وقرع باب بيت في احد الازقة ففتحت له خادمة سوداء تقول — تريد ايه .

— غصن البان

— نقلت من هذا البيت الاسبوع الماضي .

— الى اين ؟

— لا اعلم . لا اعلم .

واقفلت الخادمة الباب فجأة دون انتظار كأنها أبت ان تجيب على سؤال آخر في الموضوع . فعاد القس بولس الى مدرسته وهو يقول — لا تكرهوا شيئاً لعله خير لكم . ولكن الهواجس حالت دون استسلامه . فهلبلت باله وأيقظت في فؤاده المحرق المؤلم من الذكرى . فكتب كلمة الى غصن البان ارسلها في البريد الى عنوانها الأخير . ولبث ينتظر . فمر الاسبوع الاول والثاني فلم يجئه الجواب ولا اعيد كتابه اليه . ثم ذهب الى ادارة البوليس مستقصياً . فرحب المدير به ووعد ان يبذل الجهد في البحث عن مقر غصن البان .

وبينما كان القس بولس في غرفته ذات يوم يطالع في مجلة اسلامية مقالة في تحرير المرأة والحجاب جاءه الخادم يقول — قسيس من فلسطين يروم مقابلة سيادتكم .

فنزل القس بولس الى صالة الاستقبال واذا هو في حضرة القس جبرائيل مبارك ! وقف مبهوتاً اذ رآه يكاد لا يصدق ناظريه . ثم هتف متأهلاً مرحباً . وتعانق الاخوان وجلسا جنباً الى جنب على الديوان .

— كيف حالكم ؟ وكيف اخواننا في الناصرة ؟

— هجرتهم منذ اربع سنوات .

فقال القس بولس متبحراً — صحيح . صحيح . ورحمة ابيك تخبرني . ألم تكن في طبريا منذ ثلاث سنوات مقيماً هنالك في زي الاعراب

— دعنا من هذا الآن . فقد رأيتك لما كنت انت هناك ايضاً . سنعود الى هذا الموضوع .

واستخرج القس جبرائيل جريدة سورية من جيبه فيها المقالة التي نشرت في جرائد مصر — المقالة التي عنوانها « مريم الناصرية »

— اقرأ هذه .

— قرأتها يا ابتي قرأتها .

— اذاً لي عندكم حاجة . انا غريب هنا ولا احسن التجول في المدينة ولا احب ذلك .

— حاجتكم نقضيها عَلَى الرأس والعين . وماذا عساها تكون .

— مهمتي سرية

— حسن . لتصعد اذاً الى غرفتي .

— لا احب ان يراني احد هنا .

— الغرفة قريبة . والتلاميذ الآن في دروسهم . تفضل .

وصعد القس عمون الى غرفته يتبعه القس مبارك . فاذا هو عند دخوله في حجرة صغيرة فيها سرير وديوان صغير و كرسيان وحصير ومنضدة للكتابة ورفوف فوقها طويل — لوح بسيط غير مدهون وغير مصقول احتت الكتب ظهره . وعَلَى الحائط صورة القديس انطونيوس بين صورتي العذراء وبسوع من الصور اللماعة الملونة المطبوعة في الطليا .

اقفل القس بولس الباب ودعا الزائر الى الديوان وجلس عَلَى كرسي

امامه · ينصت لحديثه ·

— جئت القاهرة يا ابتي ملبياً صوت الرب الحي · جئت ابحث في هذه المدينة عن فتاة من بلادنا لعلك تعرفها · صاحبة هذه القصة · فتاة خاطئة كما تعلم شقية يتيمة وحيدة · انقذتها من العار والبلاء مرة · فضاقت مني صدراً وهربت الى فرنسا ثم عادت كما يظهر الى مصر — المقالة هذه لا تخلو من الحقائق — وقد احاق بها العار والبلاء ثانية · ماتت امها في الناصرة منذ خمس سنوات واوصتني بها · وقد تجلت لي الحقيقة الرائعة في الزهد والنسك منذ تلك الساعة · ساعة عرفت امها · ولا يخلص البر والنسك الا من خلص نفساً غير نفسه · فهل لك ان تساعدني في البحث عن هذه الفتاة وفي خلاصها؟

فاجاب القس بولس والاضطراب بادٍ في وجهه وفي صوته — كأني سمعت قبلك ذاك الصوت الذي سمعته · سبحانه تعالى وتبارك اسمه

— اذا تركنا مريم تذهب فريسة المعاصي والمنكرات · اذا تركناها تموت في موبقات هذه المدينة فلا النذور تنفعنا يا ابتي ولا نسكنا يرضي الله

احب القس بولس ان يسأل محدثه سؤالاً فتردد خوفاً من استماع الجواب · كأنه تحقق امراً ود ألاّ يكون · فآثر السكوت · ثم قال — واين انت مقيم ؟

— خارج القاهرة · قرب الاهرام · فلقد تعرفت باحد الفلاحين في السكة وانا قادم من بورت سعيد وهو يسكن هناك · فاستأجرت منه بيتاً بل كوخاً — قرب بيته · لان اقامتي خارج المدينة اوفق لتصدي · لا اريد

ان يعلم احد بما انا فاعل . وبالاخص الجرائد . فتفسد سعينا .

— حسن . حسن . ولكني اعتذر اليك الان . علي درس القضية . فهل لك ان تنتظرني هنا قليلاً فنستأنف الحديث ونفكر بطريقة نتخذها .

— كما تريد .

— هذه مجلة اسلامية فيها مقالات تسلي وتضحك . ساعود قريباً

وخرج القس بولس من غرفته مضطرب البال . اسير الهواجس . تتقاذفه من تقادير الزمان عواصف الهول المجهول . وذهب توّاً لا الى المدرسة بل الى الكنيسة فجثا امام المذبح يصلي . ثم تلا المزمور الحادي والخمسين — ارحمني يا رب حسب رحمتك حسب كثرة رأفتك امحُ معاصيّ . اغسلني ربي سواء السبيل . اذا كان ما اظنه الواقع فاهدني الطريق المثلى لاخلصها واخلص نفسي . مدني بنفحات من لدنك فاقوى على الشدة . مدني بنورك الازلي فينير ظلمات سري المهلكة . وسجد مراراً يقبل الارض . ولبث هناك خاشعاً ضارعاً متبحراً متأملاً . ثم خرج من الكنيسة ثابت الجأش موطد العزم وقد زال بعض اضطرابه .

وبينا هو عائد الى غرفته لاقاه في رواق المدرسة خادم فسلمه كتاب من مدير البوليص يستدعيه فيه الى الادارة . فلما اجتمع باخيه القس جبرائيل اخبره انه كان قد باشر البحث عن غصن البان وان رغبته باتقاذها لاشد من رغبته . واطلعه على كتاب مدير البوليص . ثم قال — اما اذا اهتديت الى منزلها فلا اظنها تقابلني . لقد حاولت مقابلتها مراراً فأبت مكابرة . وخضرتكم

تعلمون انني معروف في البلد . ولا يمكنني ان اتجول في كل انحائها واحيائها . وقد تكون غصن البان —

فقاطعه القس جبرائيل قائلاً — اذا اهتديت الى البيت فانا اقصده . انا اسعى اليها . انا اقابلها . فقد جئت من فلسطين لهذه الغاية . وعلى ذلك ان ترافقني الان اهديك الى كوخي . فتجتني بعد البحث بالخبر اليقين .

— نعم . نعم . ولكني لا اكتمك يا ابتي ان في عملك هذا قد تنقذ نفسين وقد تهلك نفسين .

— مشيئة الله . لتكمل مشيئة الله .

وخرج الراهبان من المدينة اصيل ذاك النهار وركبا بعد ان وصلا الى المبيزة « الترامواي » ساكتين لم ينبه احدهما بكلمة واحدة فنزلا قرب الحرم الكبير ومشيا في طريق بين سهول صفراء وخضراء قرب نصف ساعة واذا هما امام بيت من اللبن حقير .

— هذا منزلي اليوم وهذه الطريق اليه . لا اظنك تضلها سانتظرك مساء غد هنا . لا احب التردد الى المدينة ولا الى الدير كثيراً . فاستحلفك بالله ألاّ تتخلف .

— بل اكون عندك غداً بعد الظهر . او عند الغروب . اظن ادارة البوليس قد اهتدت الى منزل الفتاة . وقبل الوداع يا ابتي ارجوك ان تخبرني — ولم يكمل القس بواسّ الجملة . بلّ وقفّ متردداً .

— قلْ ما تريد .

— قلت ان ام الفتاة اوصتك بها . فهل تبوح لي باسمها .

— وما المانع . اسمها يا ابتي ساره .

— ساره . ساره .

ورفع القس بولس يده يحجب بها وجهه

— ساوافيك غداً هنا .

وعاد الى البلد ومراجل الحيرة واليقين تغلي في فؤاده يخاطب نفسه قائلاً — ساره . ساره . ما اكثر السارات في فلسطين . قد تكون هي . وقد لا تكون . قد تكون وقد لا تكون . واذا كانت هي بعينها ؟ ربي ! أيفرخ الآبآء بلقآء بنيهم وأحزن عند لقآء بنتي . مريم بنتي . امكن ذلك ؟ ولم اهتمام القس جبرائيل لها ؟ قد كان القس جبرائيل في الدير لما خرجت منه وهجرت تلك الامرأة . فعادت من كفر كنّا الى الناصرة . اذكر ذلك . لا . لا . مستحيل . مستحيل . عشرين سنة يُدفن سري فتبعثه اليوم حياً ايها الرب لتطهرني . لتهلكني في الدنيا كي لا اهلك في الآخرة . لما احبيت تلك الامرأة واستسلمت الى عاطفة هي فيتا منك يا ربي — عاطفة الحب المقدسة فانت سبحانك الحب — أكان ذلك لكي تتعذب الام ويعيش الاب كاللص . وتشقى الابنة شقآء اليتيمة البغي ؟ اذا هربت من العار المحيق الان بي أمكن ان اهرب من وجهك ؟ اذا قتلت نفسي أمكن ان اقتل اثمي ؟ سيفتضح غداً امري . سيدنس الناس غداً سري . فيلعنني القاصي والداني وامسي طريداً شريداً منبوذاً ذميماً ... وقد لا يكون مما اظن شيء . ساره

ما اكثر السارات في بلادنا · وما اكثر اليتامى وما اكثر المريمات ! فلماذا تعذب نفسك بالاوهام ايها الرجل ؟ واذا تحققت الاوهام · آه يا ربي ! غصن البان ابنة القيس يولس عمون الواعظ الشهير الحامل على الرقص والرواقص والتهتك والفسق والخلاعة · اواه ! ما هذا الحساب الذي تناقشنيه يا رب ! — بنتي طالما حننت شوقاً اليها · طالما اسفت لان امها حملتها رضيعاً الى الدير · طالما ندمت على فعلتي · بنتي كم ليلة سهرت متهجداً اسأل الله ان يجمعني بك · وها اني الان قريب منك — قريب منك ؟ ومن يعلم · ألا بنتي قريب منك ارتجف كالقصبة في الريح العاصفة · ومما اخاف يا ترى ؟ أأخشاك بنتي ؟ أأخشى ملقاك ؟ وما الذي يجعلني مخالفاً الآباء ؟ مخالفاً النواميس البشرية الالهية في الحب ان النذور والترهب والتنسك والتعبد لطرق ضيقة كلها · مظلمة · باردة · اذا قوبلت بطريقك ايها الحب الالهي · فاذا عدت اليك ، اذا سجدت امامك ، اذا اقتبلت الطرح والعار من اجلك فقليل ذلك قليل · وساقبله قانعاً ، شاكراً ، راضياً ، تكفيراً عن ذنبي يا ساره بل عن ذنوبي · غصن البان الراقصة الخاطئة الساقطة ابنتي · يا للحبور ويا للسرور · ساضمها غداً الى قلبي · ساضمها غداً الى قلبي · ساقبلك ايتها الخطيئة المتجسدة كما قبلك السيد في قديم الزمان · سأبني لك بيتاً في فؤادي · ساقضي الليالي ساجداً في نور شمعتك الضئيل امام الرب الحي · ارحمني يا الله حسب رحمتك وحسب كثرة رأفتك امح معاصي ·

— الفصل الحادي والعشرون —

في الفضيحة نوع من الشهرة يلبس فريق من الناس ثوبها الاصفر على علاته شفافاً بالياً · فيبدون سوءة النفس وان واروا سوءة الجسد · كيف لا وهم يبذلون في اعلان انفسهم الاموال الطائلة والفضيحة تعلنهم مجاناً · فقي اوربا واميركا اذا تناولت صحف الاخبار اسرار ممثلة فهتكتها تزداد تلك الممثلة شهرة فيروج سوقها ويتسابق المدراء الى المتاجرة بها وبفنها · فتنتقل من بلاد الى اخرى ومن ملهى الى آخر والاقبال حليفها والاموال بين يديها تتصرف بها كيف شاءت اميالها واهواءها · اما في الشرق حيث لا تفصل بين المرء ومهنته بين آدابه وفنه فالخزي والفشل والعار تحيق به في الحالين

سقطت غصن البان في القاهرة فنسي الناس رقصها وأفسدت طلاسم سحرها فجفاها كل اصحابها ما سوى سر همت باشا · ولم يجئها كلمة تعزية او تشجيع من احد سوى ذاك الكتاب من الحاج محيي الدين فودت غصن البان ان تنسه بالسم وتلفه اياه

وحيدة · طريدة · منبوذة · فاذا عساها تصنع ؟ الى اين تذهب ؟ كيف تتجه الان بامالها ؟ فكرت في امرها ثم فكرت وهي تظهر في اشد شدائها هذه من الضعف قوة · فوطنت النفس على ان تقيم في القاهرة ريثما تسكن العواصف وتهدأ الرياح · وتقلت من قلب البلد الى احدى زواياها

المظلمة عرباً من الشاتة بل عرباً ممن يعرفونها ولا يحفلون بها . فهي تطيق عذاب الوحدة والخمول ولا تطيق ظلم الشهرة والخذل .

ولكن اثنين بحثا عنها القس بولص عسون وسر همت باشا واهتديا الى منزلها في مصر العتيقة . وسر همت سعى اليها ذات يوم يعزيها ويطيب نفسها ويعرض عليها المال ويرجوها ان تقتبل ضيافته الى ان تفرج كربها ويسر الله امرها .

— البيت في الجزيرة مفروش مهجور تقيمين فيه وخدمك .

— لا وحياتك لا . ارجوك ألاّ تحدثني بالبيوت . اعذرني يا صديقي . اعفني . صرت اخشى المعروف كما اخشى الاقامي . صرت اخشى المكارم كما اخشى الوحوش الضارية .

— غصن البان !

— ارقص لك يا سر همت وابسطك . ولكني لست آلة طرب تتناولها الناس فيضربون عليها ويعبثون بها ويسكرون على انغامها . لا . لا . لست كمنجة تؤجر او تُعار او تُشترى . وهب اني آلة طرب يا سر همت يا صديقي فقد تقطعت اوتاري . تقطعت كلها .

— ما انصفتِ والله ما انصفتِ . اسأت فهمي . اعتني . أسألتك يا غصن البان شيئاً من اشياء الحب مرة ؟ وهل كنت ممن يحومون حولك ابتغاء هبة من هبات جسدك ؟

— لذلك اخشاك .

— انا صديقك . وقد قلت مراراً انك لا تحبينني . ولكني ما من مرة شككت في انك تعتبرينني وتكرمينني كما اعتبرك واكرمك . أجل يا اختي مواهبك . واريد ان اعزز فنك . فنك يكبر على ذي البلاد . مستقبلك يا غصن البان في اوربا — في باريس في لندرا في فيانا في برلين . ولقد فكرت في امرك كثيراً . اسمعي . لا تنظري الي عاشقاً أو صديقاً أو محباً أو ولياً . أكلمك الان كما يكلمك مدير من مدراء البياترات . تعلمين ان اصحابي وممارفي في لندرا كثيرون . وبينهم ذوو النفوذ في عالم التمثيل هنالك . سأسافر هذا الصيف الى لندرا والوّه بك هنالك . اطبل وازمر لك . انت الان راقصة شرقية شهيرة . ظهرت في مصر وفزت فيها فوزاً مبيناً رغم انوف البغاة والسعاة والحساد . ساخابر احد المدراء بشأنك هناك . فتظهرين ان شاء الله في لندرا كالشهيرات من الرواقص لا كالمبتدئات واني واثق بفوزي . دعيني اسعى من اجلك .

— لا . لا . لا اريد ان يسعى أحد من اجلي . سأسعى لنفسي

— ان تقتك هذه بنفسك لجميلة . وجميل آباؤك . سأسعى اذاً من أجل الفن فنك لا من أجلك . وان شئتِ ان تشاركيني في الارباح فلا اعف عنها .

— اذا كنت ترى في رقصي ما ينبغي ان يراه الاوربيون ، واذا كنتَ تعاملني كما يعاملني وكيلي أو مديري ، واذا كنت تقبل مني جزءاً من ايرادي ، واذا ....

— واذا · واذا · واذا · كفاك من ذي الاذا بل الاذى فقد اذيتني جداً · اعمل كما تشائين ·

— وانا قابلة

— وسأسافر هذا الصيف الى لندرا وعساني افوز بما ابتغيه فأكتب اليك كي تسافري أو اعود بنفسي فاستصحبك · انا الان وكيلك ومديرك · ولكن اقامتك هنا يا اختي ، يا صديقتي — وها انك لم تزالي تسمين — بالله ان تقبلي ضيافتي · البيت في الجيزة على شاطىء النيل جميل ·

— لا تحدثني بالبيوت · لا تحدثني بالضيافة · انا راضية بما انا فيه الان · هذا البيت يكفيني · ومرجانة والحمد لله ومحمود لا يهجراني

— تبصري بما اقول · البيت في الجيزة مهجور انتقلَ اليه تقيمين فيه وخادماك · واذا احببت ان تدفعي اجرته اقبلها منك عندما تشتهرين بلندرا

— اعذرني · افضل ان ابقى هنا · سأقيم في هذا الحي ، في هذا البيت الى ان يجيئني خير منك · عزمت عزمي ولا اتحولُ عنه

— كما تريدين · أو ترفضين عيادة طبيبي يعالج سعالك ؟

— لا ·

— حسن · بارك الله فيك

— أو ترفضين عزيمتي الليلة الى العشاء ؟

— اين ؟

— في الكنتيننتال · لا أغير عاداتي ولا ينبغي لك ان تغيري عاداتك ·

أحب ان يراك الناس معي . أفتخر بذلك . لاني كما تعلمين احتقر هؤلاء الناس . كانوا أمس يهتفون لك كالمجانين . واليوم ينبحون عليك كالكلاب عليهم لعنات الله وأبليس . قومي بنا . لا يهمني اليوم بالقاهرة غيرك

— والموميات .

— والموميات . عليك نور

— انتظر ريثما ألبس ثيابي .

— ولتكن أحسن ما عندك وأجمل .

وخرجت غصن البان من غرفتها الخصوصية بعد نصف ساعة وقد ارتدت ثوباً من الحرير الرمادي ، انيق الزي ، بسيط التخريج ، وقبعة مخمل من لونه صغيرة شبيهة بالعمامة في مقدمها ريشة بيضاء تبدو فوق جبينها البراق كطائر من الحمام أسف على الماء .

— وما هذه الذخيرة يا غصن البان ؟

— ألم تريها قبل اليوم ؟ هي سلواي الوحيدة ألبسها في ايامي السوداء فتسليني ، تشجعني ، تعزيني . امشِ ولا تحفل بها .

— بل شوقتني الى الاطلاع على سرها .

— سرها هنا — واشارت الى قلبها — امشِ يا سر هنت ولا تكن ...

— فضولياً . ممنون ، ممنون . تفضلي .

وخرج واياها من ذاك البيت الحقير فوقف محمود عند الباب وبده على رأسه . واجتازا زقاقاً لا نور فيه غير انوار القناديل الضئيلة المعلقة فوق

الأبواب · فترى المارين اشباحهم ولا تتبين سبيلهم · والرواشن فوق رؤوسهم الى الجانبين تكاد تقع بعضها على بعض · ولما وصلا الى الشارع العمومي ركبا عربة سارت بهما الى الكنتيننتال ·

وبعد العشاء ونزهة في الجيزة شيعها سر همت الى بيتها قرب نصف الليل وودعها عند الباب · وكان محمود لم يزل جالساً هناك ينتظر سيدته · فلما دخلت باب الرواق استفاقت مرجانة فجاءت تفرك عينيها وتقول

— أتريدين حاجة مني ؟

— لا يا مرجانة · روحي نامي ·

وصعدت فصن البان الى غرفتها منقبضة النفس مضطربة البال تفكر بسر همت ووعوده وتقول —

ومن يصدق منهم يا ترى ؟ خدعوني كلهم خدعوني · ولم يزالوا يحاولون · ولكني لست اليوم تلك الساذجة · بيت على شاطىء النيل — شهرة في لندرا — وكيلي — صديقي — ما شاء الله ! أو تلام الراقصة الخاملة المسكينة الضعيفة اذا خدعت وابتذلت وامتهنت · يتحجر قلبها وتفسد اخلاقها وتتجعد بشرتها فتتاجر بجسدها كما يتاجر محيي الدين بمكارمه · وسر همت ايضاً · سر همت مثله ولا شك · أتلام تلك المسكينة يا ترى اذا قبلت حب من يخطب ودها كما لو كان حقها دون ان تبادله حبها · يخدعها فتخدعه · يهينها فتهينه · يضحك منها فتضحك منه · والناس يحتقرونها ويزدرونها ولا يدركون الاسباب التي شوهت نفسها وقتلت فيها الصدق والطهر والوفاء ·

ولا يحفلون بتلك الاسباب وان ادركوها .

خلعت برنيطتها ثم نزعت السلسلة من عنقها فرفعت الذخيرة الى فمها تقبلها وبينما هي واقفة امام المرآة تناجي تلك الذخيرة كان رجل قادماً في ذاك الزقاق يعد الى يمينه الابواب . فوصل الى المقصود منها واذا بمحمود جالس على الاسكفة تحت القنديل وقد بدت اسنانه كالعاج المنقى يعد سبحته ويتمتم متغنياً ببعض الاشعار على نغمات عود في الحارة المجاورة

— هذا بيت غصن البان ؟

— نعم .

فهم الرجل بالدخول فاستوقفه محمود قائلاً — حاجتك ايه ؟

فدخل الرجل ولم يحفل به فلحقه العبد وامسكه بجبته

— تريد ايه يا شيخ ؟

فتفلت الرجل منه وضربه على وجهه ضربة اطفأت نور عينيه فوقع الى الارض . فتركه يئن ويلهث ويسب وتقدم مسرعاً فاذا هو في رواق صغير فيه نوفرة متهدمة جافة بل نائمة لا صوت لها . والى يمينه باب ودرج يوصل الى الدور الثاني . فنظر الرجل الى الشبابيك فيه فلم ير نوراً الا في واحد منها . فصعد المدرج ومحمود وراءه ينادي — يا مرجانة ، يا مرجانة !

وذهب توّاً الى الغرفة المنورة فوجد الباب مفتوحاً وغصن البان مدبرة تخلع ثيابها . فلما رأت الخيال الاسود منعكساً امامها في المرآة ذعرت وصاحت مستجيرة . وسارعت الى الباب تقفله . ثم نادت من الشباك .

— يا محمود ، يا مرجانة ، يا مرجانة ، يا محمود !!

فطمأنها الرجل من الخارج قائلاً

— لا تخافي يا بنتي . ألبسي ثيابك يا مريم وافتحي .

— يا محمود . يا مرجانة . دهتكم داهية . من الغريب الواقف في الباب ؟

فجأة محمود يده على عينه يصيح ويتوعد الغريب

— يا بنتي يا مريم ، لا تخافي . انا القس جبرائيل . صديقك القس جبرائيل مبارك . ألبسي ثيابك وافتحي الباب .

فسمع القس جبرائيل غصن البان تهمس اسمه همساً اشد من الصياح وساد داخل الغرفة سكوت عميق قصير . ثم قالت تخاطب محموداً

— دع الرجل يا محمود . رح نم .

وبعد هنيهة فتحت الباب وقد ارتدت غلالة خضراء . ووقفت تحت العتبة كالتمثال لا تبدي حراكاً . نظرت الى الراهب نظرة جامدة باردة ثم قالت

— وماذا تبتغي مني اليوم ؟

— ما ابتغيه منذ خمس سنوات ولم ازل ابتغيه .

— وكانت بغيتك قريبة منك فلم تظفر بها فكيف اذا اصبحت بعيدة عنك بعد السماء من الارض ؟

— البعيد من الله أقرب اليه من القريب منه

— اتركني اذاً قريبة من الله .

ولاح في عينيها بريق الشقاء المستهتر وهي تبتسم ابتسامة التهكم . في السنين التي قضتها نائية عن وصيها ومرشدها — خارج السجن — في نعيم الحياة وبؤسها نشأ فيها خلق الازدراء والتفوق فكان يخفي في بعض الاحيان فطرتها الطيبة . زالت سذاجتها كما يزول لون الزهرة وشذاها اذا قطفت وعُرضت للشمس ، ولكن تلك الغريزة الحميدة كمنت في قلبها كما تكمن في الزهرة بذور الحياة الخالدة . والخلق المكتسب فيها — خلق الغوانيّ والممثلات — منشأ الغرور والتفوق — خلق من يقفن كل ليلة امام الناس فتسكرهن ضجات الاستحسان والاعجاب — ذاك الخلق الانيق الباهر الكذوب خانها فلك الآونة ولم تكن لتستطيع ان تخفي ما جاش في صدرها من جيشان الغم والاسى . فلما اجابت القس جبرائيل الجواب الذي ظنته قاطعاً منحماً عبس بها واجابها قائلاً

— ما جئت امازحك .

فارتعدت فرائصها وتساقطت منها حلى الغرور والتصنع كما تتساقط من الاشجار اثارها الشهية . فوقفت لا كغصن البان امام احد مريديها معتزة شافتة بل كريم الناصرية امام الله صاغرة خاشعة . نظرة من نظرات القديس القاسية أحيت فيها حقيقة حالها . كأنه تناول الوردة البالية فنفخ بها فتطايرت تيلاتها ، بدت في قلبها العاري بذور الحقيقة الزائفة — بذور الحياة الطاهرة . فمدت غصن البان يدها الى الراهب كأنها تقول — خذ ما تبقى

في قلبي وازرعه حيث شئت ·

— ما جئت امازحك ·

ثم قال دون ان يقترب منها — تعالي معي ·

— الى اين ؟

— الى حيث اشاء ·

— سيدي القس جبرائيل ·

— ولا كلمة · هاتي يدك · ومدّ يده اليها

— لي كلمة واحدة اقولها · ادخل يا مولاي · ادخل بيتي وان كان لا يليق بك ·

واخذت يده فادخلته غرفتها واجلسته على الديوان امام سريرها · فاعترت الراهب هزة حين شاهد وجهها في نور القنديل · سبحانك اللهم · أتكذب الملآ ثم ، أتخطىء الدعارة ؟ هذه النضارة وهذا الرونق في وجهها · لقد زادتها السنون جمالاً · وليس في عينيها ولا في فمها أثر من آثار الخطيئة · الا ان نظراتها ولهجتها في بعض الاحايين كانت تزعجه ·

— أجئت تنقذني مرة ثانية يا مولاي ؟ هل تعرف من انا الان ؟ لما هربت واياك الى طبريا كنت بتاً جنيّ عليها فصارت اماً · اماً حزينة · ثم فررت من تلك البلاد ومنك هاربة · فخضت عباب الحياة راغبة طامحة مستهترة · نسيت ولدي ونسيتك الا في اوقات الـ — نسيتك ونسيت قديم بلائي · فانلت اهوائي واسترسلت في اهوائي · مذ دت يدي الى الفواكه

المحرمة الثمار التي اشتهتها نفسي فقال الناس اني راقصة بغي . قاتلت من حاول هتك عرضي ممن يكرههم قلبي فغلبوني . لفيت منهم الويل والبلاء . وقال الناس . هذا الترفع كذب وهذا التمنع صاغته حيل النساء ! رأوني ساعة استهتاري ولم يروني في ساعات عذابي . رأوني راقصة بغياً . ولم يروا ما في قلبي من الاماني العالية والمطامع الشريفة . فكرهت نفسي الرجال وطردت من قلبي الحب وذكراه . الا ان زوايا هذا القلب الكسير — في زواياه المظلمة الباردة — شيئاً واحداً اعزه واقدسه واهتدي به . شيئاً واحداً يشفع بي امامك وامام الله . ابتي القس جبرائيل . مولاي . منقذي . لا تنظر الي غضباً . عبوساً . اخاف هاته النظرات . ترجفني كلماتك . سامحني . ارحمني . اوث لحالي .

خرّت غصن البان امامه جاثية وطفقت تقبل يديه وتنظر اليه تارة خاشعة حزينة وتارة بهيبة غانجة . نفس مريم في قلب غصن البان . قلب غصن البان في نفس مريم . انما هذه الامرأة التي خرّت امام القس جبرائيل جاثية فاحزنته كلماتها . وازعجته حركاتها . وعذبته منها تلك النظرات المريبة . وارتعشت جوارحه من قبلاتها الحارّة . فابعدها عنه قائلاً . انهضي انهضي . وسيري معي .

— لا . لا . اليك عني . دعني في بلائي . في وحدتي — في وحشتي . ان يدك لا تصل الي لتنقذني ثانية . واذا حاولت ذلك قد تسقط معي . سر في سبيلك . ودعني في شقائي .

— اني لا اعرف ما في قلبك وما ليس في قلبك امشي معي ·

— مستحيل · مستحيل ·

— امشي قدامي

واخذها بيدها فتفلتت منه نافرة حانقة ·

— البلاء المحيق اليوم بي خير من القساوة التي تمد الي يدها · الشقاء المكتنفني خير من تبرد كلماتك ·

— السعادة تناديك وتنتظر قدومك · امشي معي ·

— ولكن رسول السعادة لا يكون ظالماً قاسياً ·

— مخطئة انت

— برهانك · برهانك اني مخطئة · أنظرت الى ما في اعماق قلبي وبشئت له · أأريك ما لم ازل اقدسه فلا تحفل به ؟

— ومن قال لك ذلك يا مريم ؟ ان اوهامك باطلة · انظري الي · تقدمي مني · أأسألك عن هذه الذخيرة وهي بادية لناظري · عزيزة عندي كريمة مقدسة ·

واخذ الذخيرة يقبلها ويقول في نفسه — رحمة الله عليك يا ساره · فلاحت اذ ذاك في وجه غصن البان ابتسامة السرور والرضى وسكتت هنيهة · ثم اخذت يده بيديها وقالت

— لا تقساني · لا تظلمني · لا تعاملني كمن ظفر بالحياة فاذلها · عاملني كمن يحب الحياة وان أذلته · مولاي اقبل جبرائيل · انا رهينة اشارتك ·

انا خادم في بصرك . ولكني لا اجسر اليوم ان اسألك ما سأسألكه مرة . لقد افسد الخمر مزاجي . فصرت اخشى ما اعلم وما اجهل . انت تعرف ما اريد . انت تدرك بغيتي القصوى . فقد حفظتها مقدسة هذه السنوات كلها . وكنت في نعيم الحياة شقية حزينة . كنت ابكي وانتحب حين تعذبني لذكراه هزة الشوق . ولدي . ولدي .

— سيري معي فيكون لك ما تبتغين . السعادة تناديك وتنتظر قدومك

— الى حيث شئت . الى حيث تريد . حتى الى الجحيم .

— نحن الان في الجحيم . اسرعي . اسرعي نخرج منه .

— الان ؟

— الان . هذه الساعة . هذه الدقيقة .

— وبيتي وامتعتي و—

— غداً يجيء من يعتني بذلك . انقضي الان يدك من كل شيء وسيري معي الى بيتي . دعي خادمتك نائمة . وخادمك . ألبسي ما يقيك هواء الليل الباود — اقفلي الباب . هاتي المفتاح .

— بارك الله فيك

ومشت والقس جبرائيل الى منعطف الجادة فاذا بعربة تنتظر هناك . فركبت واياه وراح الحوذي يحث خيله الى الجيزة ومنها الى ناحية الاهرام . وبعد سير ساعة وما يزيد وقفت العربة فترجل القس جبرائيل وصرف الحوذي ودخل وقصص الليل في بستان من النخيل ماشيين بسرعتين جنباً الى

— الى اين يا قس جبرائيل ؟

— الى بيتي .

— ويلي هذه الظلمة مخيفة مرعبة .

اجتازا في ذاك البستان الى الصحراء فاصبحا بعيدين عن العقول والسبل فيها . ضلّ القس جبرائيل الطريق تاه ورفيقته في البادية . في بحر من الرمال وبحر من الظلمة . مشيا ساعة فاضياعها المشي . فرمت نفسها بنفسها على الرمل تئن من التعب والخوف .

— اين بيتك يا قس جبرائيل . ربي ! ما عساك تصنع ؟ الى اين . آم ما ألطف هذا الهواء — دعني استريح قليلاً . اجلس تستريح . اجلس هنا الى جانبي . هواء الليل منعش وظلمة الليل اذا كنت قربي لا تخيفني

وقف القس جبرائيل وقد احس من نفسه وهناً — ينظر غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالاً يسأل الله الهداية ولكن البادية كلها طريق والليل كله طريق اخرى ولا حاجز في الطريقين ولا حد لهما .

— انهضي يا بنتي . امشي امشي . الله معنا . ها قد تراءت لي ظلمة اشد ظلاماً من الليل واقلة كالطود هناك . هذا الهرم . لله ! ما اقرب الطريق الى الجحيم وما ابعدها منه . ما اقصرها ذهاباً وما اطولها ايباباً

واستأنفت رفيقته السرى ثم وقفت فجأة يسند رأسه بيديه من صداع بل دوار اصابه .

— ما بالك يا قس جبرائيل ؟ لماذا لا تجلس قليلاً فتستريح . دعنا ننتظر

هنا ريثما يطلع الفجر . النوم على الرمل تحت السماء لذيذ .

— امشي يا بنتي امشي . هذا الحرم قد اهتدينا الى الطريق وقريباً نصل الى البيت .

وهب اذ ذاك الهواء البارد رسول الفجر فجعل يصفر في ثخاريب حجارة الحرم فيستحيل صفيره صياحاً بشرياً وعويلاً . فخيل الى القس جبرائيل لما اعتراه من العياء والدوار أن اناساً هناك يقهقهون ويضحكون منه بل سمع اصواتاً تقول

— صفقوا للناسك ! قد فاز بقوت قلبه

— حيوا الناسك وعروسه !

— خذوا الدفوف واضربوا وارقصوا !

وكان صدى العويل والصفير يتراجع في هبوب الرياح . فسمع الراهب تلك الاصوات حول الحرم كأنها اصوات خارجة منه .

— لو أحبها لرحمها . لتركها تنعم في حجيبها

— لو أحبها لعاش واياها هناك

— لو أحبها لقتلها .

— تبارك ضلاله ! وتباركت اوهامها !

— خذوا الدفوف واضربوا وارقصوا ...

هدأت الريح قليلاً ولم يهدأ ما اثارته في قلب القس جبرائيل من الهواجس والاوهام . فقبض على يد غصن اتبان وقد تصور انها تحاول الفرار منه واسرع

في مشيه . لقد سمع اصواتاً لم تسمعها ، ولكنها أحست باضطرابه وسمعت تنهداته ، وكادت نار يده تحرق معصمها

— ما بالك يا قس جبرائيل ؟ ما بالك ؟

— لا شيء ، لا شيء يزعج يا بنتي ، لا شيء .

ولكنه كان يسائل نفسه قائلاً

— وما هي يا ترى هذه الاصوات المرعبة ؟ أتضحك الاموات منا ؟ أتتذرني بحبوط مسعاي ؟

— يا قس جبرائيل ...

— وصلنا يا بنتي ، وصلنا .

وما كاد يقف في باب كوخه حتى تراءى له خيال ابيض حول رأسه هالة من النور . فسمعه يقول

— انا الرحمة . انا المحبة . من يميت نفسه يحييها . ومن يحيي نفساً أخرى يحيي نفسه .

دخل الى الكوخ يرتعد وجلاً وغصن البان لم تزل في قبضته . فاجلسها على مرتبة من الخشب فيه واشعل القنديل

— هذا سريرك . نامي يا بنتي . لقد اعياك المشي وارالك ترتعدين برداً . نامي قليلاً

ثم خلع جبته وغطاها بها .

— نامي قليلاً لتقوى على السفر غداً .

ثم اطفأ القنديل وخرج من الكوخ . فجلست غصن البان على تلك المرتبة ورأسها بين يديها تفكر في مصيرها . والقس جبرائيل يتمشى على الرمل قلقاً معذباً يردد ما اسمعه الوهم من اصوات الليل والقبور .

— لو أحببتها لتركتها في الجحيم ! لو أحببتها لاقمت واياها هنالك . لو أحببتها لقتلتها ! شياطين الجحيم ! أتتبعني لتهزأ بي ، لتسخر مني ، لتضحك من مسعاي . هيهات هيهات ! أواه ، رأسي يلتهب وهواء الفجر لا ينعشني — من أمات نفسه أحياها . من قتل نفسه أحياها . رب الاكوان ! ان نجومك ورمالك لتخفي الصغير والكبير من أسرارك . من أحيى نفساً اخرى احيى نفسه . والنفس اذا عادت اليها حياتها الدنيا عادت الرغبات معها والاهواء والشهوات . كانت مريم ضالة فوجدت . ومن وجدها ؟ من انقذها ؟ من ذا الذي عاد بها الى الحياة — الى مطهر القلوب ؟ انا الفقير اليك يا ربي . فهل ينبغي لي ان اقتل النفس الجديدة في — تلك التي أحببتها ، لك المجد ، بتحقيق آمالي وبتوفيق مسعاي ؟ لم تزل تظن ان الذخيرة مني . مسكينة واهمة . سأكشف لها السر . سأطلعها عليه . تذكرهني بذلك ، تلعنني ، وقد تفلت من يدي فيخفق مسعاي ثانية . ما العمل ! ما العمل ؟

جلس على الرمل قبالة الكوخ يتأمل الربع الاخير من القمر وقد ظهر في الافق فوق الرمال يرفع سجفاً من سجوف الظلام . واقبلت طلائع الفجر الاولى تطارد الليل تميزت الصحراء والسهول وبدت رؤوس النخيل قرب البئر كأحمال من الرتم حول الاتون . وهب نسيم الفجر فانعش الراهب

وجدد فيه العزم والثبات ·

— سنسافر اليوم · سنسافر اليوم

ورفع رأسه فاذا بغصن البان واقفة في باب الكوخ تنظر اليه ، والقمر ينير وجهها ، والنسيم يداعب شعرها · فناديته بصوت متلجلج مضطرب ودنت منه تخاطبه قائلة

— فلتنتك هجرتي · وقد تفعل · من يعلم · اسمع يا قس جبرائيل · احب ان اعرف الى اين ذاهب بي · وما الغاية من سعيك هذا ؟ أتريد ان تنقذني من موبقات المدينة ؟ هذا مستحيل · الموبقات ليست في المدينة بل في قلبي · رح يا سيدي في سبيلك · ودعني اعود الى شقائي ، الى بؤسي ، الى وحدتي — الى جحيمي · لا تقترب مني ادنسك · يدي ملطخة بالاثم · جسمي مدهون بزيوت الفحش والعار · في صدري تحتدم نيران الشهوات · في حيني رماد كان بالامس نار رغبات سماوية · في شعري سم قبلات العشاق والمحبين · لا تقترب مني ادنسك · سر في سبيلك · عد الى نعيمك · ودعني أعد الى جحيمي ·

— سسافر اليوم · هذه الساعة ان شئت · الى طبريا حيث السعادة تنتظرك · تناديك من تلك الارض المقدسة · لا تستوسلي في الاوهام · وطدي نفسك بالله · لا ترتابي ···

— ارتاب في انك صليبي ·

— وستسافرين معي الى طبريا فتلتقين هناك ومن تحبينه ·

— ومن احبه ؟ عساك تحلم بزواجي . انت مخطىء . ليست غصن البان تلك الفتاة مريم التي كنت تعرفها . خاطرك الوداع . ادعو لك بالتوفيق حيث سرت . وحيث حللت .

وهمت بالذهاب فامسكها القس جبرائيل بيدها واوقفها .

— اتركني !

— قفي قليلاً . ادخلي . اسمعي كلمتي الاخيرة .

— لا . لا .

فجرّها الى الباب فوقفت عنانك متمنعة متمردة .

— دعني اذهب في سبيلي

— عبثاً تحاولين التفلت من يدي

— اتركني . لا تكرهني .

فشغط عَلَى معصميها فصرخت متأوهة والتوت تحت وجهه الناظر الى وجهها كغصن هصرته الرياح . فنهض بها حتى كاد خدها يلامس لحيته ، وهو ينظر اليها بعين لاح فيها وميض الشهوة التي طالما خدعتها فاصبحت بين يديه كالعصفور وماء الصائد ، لا تبدي حراكاً . فحملها الى داخل الكوخ وهي ترتعد برداً وحباً وجزعاً . وما لبثت ان اغمي عليها . فمددها القس جبرائيل عَلَى المرتبة وطفق يفرك يديها ورجليها وينادي باسمها مطمئناً مطابياً

وفي تلك الساعة دخل القس بولص عمون قادماً من البلد . فوقف في الباب والقس جبرائيل مدبر يعالج غصن البان .

— المجد لله يا ابتي ·

فالتفت القس جبرائيل مذعورا واذ شاهد اخاه القس بولس تنفس الصعداء

— جئت في وقتك · هذه الابنة مريم ابنتنا · لقد اغمي عليها من شدة التعب · ساعدني لنعيد اليها رشدها · تقدم · اقرك رجليها ·

تقدما القس بولس ينظر الى وجهها فشاهد الذخيرة على صدرها فتأملها فاذا هي بعينها تلك الذخيرة التي اعطاها الى امها ساره يوم كانت حاملاً · فقبلها وقبل مريم هاتفاً ·

— بنتي ! بنتي ! سبحانك اللهم · ارحمني يا ربي وارحمها ·

جمد الدم في عروق القس جبرائيل ووقف كالشبح بين البنت والراهب محملقاً ·

— وهل انت الاخ ايلياس ····

— نعم انا ايلياس البلان · انا هو ·

فصفق القس جبرائيل كفاً على كف معجباً مبتهجاً · ثم بسط ذراعيه الى القس بولس · فضمه اليه يقبله ويقول

— غفر الله ذنوبنا أجمعين · لقد سامحتك ساره وغفرت ذنبك وهي على فراش الموت · يا مريم ، يا مريم · استفيقي يا بنتي ، استفيقي · افرحي تهالي · فها قد ظهر قسم من سعادتك · ها هوذا ابوك ·

— ابي ابي ·

— نعم ابوك

فايقظتها الدهشة وجلست تنظر الى الراهبين حائرة باثرة

— ابي اين ابي ؟ من هو ابي ؟

فضمها القس بولس اليه عاتفاً

— بنتي الحبيبة ، بنتي مريم ! أجثو امام أمك فيك . اسأل الله ان يغفر ذنبي . رحم الله امك . غفر الله ذنبي .

وضمها اليه وطفق يقبلها مبتهجاً ، مضطرباً ، باكياً .

— الفصل الثاني والعشرون —

عَلَى شاطىء البحيرة عند تلحوم امرأة تناهز الاربعين من العمر تحدث أحد النوتيين ، وولد صغير صبوح الوجه أشقر الشعر حاد النظرات أنيق الثياب لا يتجاوز الرابعة من سنه يلعب عَلَى الرمل ويراقب القوارب القادمة من طبريا وسمخ .

— يا لطيفة ، يا لطيفة . زات السخولا .

فادارت الامرأة وجهها واذا بالصبي قريب من الماء . فصاحت به مذعورة — فريد . فريد ! يا ربي . يا مريم العذرا ! وركضت اليه تجذبه بيده وتضربه عليها .

— قلت لك الف مرة لا تقترب من الموج . قم نرجع الى البيت . ما جاء أحد اليوم .

فصرخ فريد متأوهاً وجلس عَلَى الرمل يقبض عَلَى رجله بيده كأنها حرة تأو جرحت .

— عرفت حيلتك . قم يا حبيبي . قم اركب عَلَى ظهري .

فركب فريد ضاحكاً مشتبثاً . وعادت به الى البيت — بيت القس جبرائيل في السهل وهي تغني له —

والدوم ويلي عالدوم
راحت يا حرام الشوم
راحت لكن راح ترجع
راح ترجع صباح اليوم

ولكنها لم تعد لا صباح ذاك اليوم ولا صبـاح تواليه . فملت لطيفة الانتظار . واشفاقاً على فريد من الخطر في لعبه قرب الماء لم تجبه بعدئذ الى شاطىء البحيرة .

— اليوم تطلع الى الربوة وتأخذ العنزة معنا

— والسلة للهندبا أنا احملها .

— طيب احمل السلة واركب على ظهري .

— اتعب عاقهرك . مباره وزعتيني . سدبتي بيدي كتير .

— مليح . اركب على كتفي . على رقبتي . الله يجيرني منك .

— امسي يا لطيفه . بكله اغني عاقبرك .

— واليوم غني لي عالدوم . غني

فجعل فريد يردد بلثغة الاطفال الجميلة —

عالدوم ويلي على الدوم
لاهت يا هلام السوم
لاهت لكن لاه تلزع
لاه تلزع صباه اليوم

— يسلم فمك . ومن يرجع يا حبيبي ؟

— الماما .

— واين هي الماما ؟

— الماما بصل .

— وانت مشتاق اليها ؟

— كتير . كتير .

— ولما تجي، ماذا تقول لها ؟

— قلا — يا ماما العنب استوى وبطاع معا علكلم وبقطفلا العنقود

— الصليب حولك . الصليب حولك .

— غني انتِ . غني — وطلعت عالاس الزبل .

وجعلت لطيفة تغني له الاغاني والاهازيج وهي في الحقل تملأ سلتها من المندبآ، وهو يختار من عسيب العفص اطرى الاغصان ويلتمها المترة

وفي ذات يوم بينا كان عائداً الى البيت راكباً على عنق لطيفة يوز رجليه ويغني « عالدوم » رأى قارباً في البحيرة بعيداً فهتف قائلاً

— سختولا . سختولا . زات الماما . زات الماما .

وظل يلح ويبكي حتى جاءت به لطيفة ذاك اليوم الى « فلهوم » أي كفرناحوم . ولبثت تنتظر قدوم القوارب من طبريا . فجلست واياه على الشاطئ، تجمع له الاصداف تعلله بها . ولما وصل احد القوارب ونزل منه بعض الافرنج المقيمين في دير بتلك النواحي طفق نريد يبكي . ورمى في

البحيرة غيظاً كل ما جمعته لطيفة من الصدف .

— لا تحرد يا حبيبي ، لا تبك . غداً تجيء الماما . قم نرجع اليوم الى البيت .

وما كادت تجتاز واياه الشاطئ ، حتى سمعت صوتاً ينادي بها — يا لطيفة ! يا لطيفة ! فتلفتت ملياً كأنها عرفت صاحب الصوت . واذا بقارب آخر يقل امرأة وراهبين وبضعة صناديق من الامتعة . فعادت تركض والصغير على ظهرها يحثها من شدة الفرح برجليه . ويصيح

— الماما . الماما .

ولقد أعد القس جبرائيل مريم لهذه الدهشة المفرحة العظيمة قبل السفر من مصر . فقص عليها قصة الطفل منذ سُرق تلك الليلة الى يوم استرجاعه من الشقية ام هيلانة والقائها في السجن . ولولا ولدها ما عادت مريم واياه الى فلسطين .

ولما اقترب القارب من الشاطئ ، قال القس جبرائيل يخاطب مريم

— البحيرة التي مشى عليها السيد انما هي لم العجائب . سلبتك ابنك طفلاً رضيعاً فاعادته اليك صبياً بهيجاً . ها هو فريد ابن البحيرة تحمله رفيقتك القديمة لطيفة . اسمعيه يناديك .

وكان فريد على الشاطئ ، يرقص ويشير بيديه منادياً الماما . فلما وطأت امه الثرى ركض اليها باسطاً ذراعيه فتعلق بعنقها يقبلها ويقول — اين كنت يا ماما ؟ وهي تقبله وتبكي . جلست على الرمل وأجلسته في حجرها تحدجه

ينظرها منصتة الى كلماته وسوء الأنه لا تدري ما تقول . فاصابها من شدة التهيج والبكاء نوبة سعال دامت بضع دقائق . فاخذ القس جبرائيل الصبي واسعف القس بولس ابنته وسار الجميع توآ الى البيت .

وفي تلك الليلة نامت مريم تضم ابنها الى صدرها وهي تحس بلذة جديدة بهيجة عجيبة أسكنت جوارحها وضمدت جراح قلبها .

وفي الصباح باكراً نهض فريد يوقظ أمه ويقول

— ماما ، استوى العنب . اطلعي اقطفلك العنقود .

فنهضت تداعبه وتلاعبه وتضمه الى صدرها وتقبله . وجاءت به الى فناء البيت تحمله على ذراعها فأحست من نفسها وهناً .

— لا استطيع ان احملك يا حبيبي .

— انا أمسي علكلم .

— سنطلع الى الكرم يا عمري . تعال قبلني .

فركض فريد اليها يعانقها ثم قبلها في فمها . فابعدته تقول — لا . لا . قبلني هنا (مشيرة الى خدها) وهنا (مشيرة الى عنقها) .

ثم ابعدته منها قيد ذراع وهي تنظر اليه بعين كئيبة حزينة ترقرق الدمع فيها .

ودخلت اذ ذاك لطيفة تحمل طبقاً من القش عليه الخبز والجبن والزيتون والعسل والقريش ومقلاة فيها بيضات مقلية وسفود من الشواء فألقت الطبق على طاولة قرب الديوان وهي تخاطب مريم .

— لا تؤاخذيني اذا ناديتك حسب العادة القديمة باسمك . لقد سمعت بما كنت فيه من العز بمصر وفرحت كثيراً ولكنك دائماً تلك المريم عندي. سبحان من يغير ولا يتغير . أنسيت لطيفة المشية التي كانت تلعب وإياك «البوكر» ؟ أتذكرين تلك الليالي والفولات ، والأزهار التي حرقتها ، والا...

فقاطعتها مريم تقول

— لا تذكريني بتلك الايام يا لطيفة ...

— وما بالك تبكين يا بنتي . انت أعز من بنتي . أتبكين فرحاً للقاء فريد . يحق لك . لولاي ...

— علمت بفضلك يا لطيفة . وانا شاكرة لك ممتنة .

— واذا غبت يوماً واحداً عن فريد يضيع عقلي .

واخذت الصغير بين ذراعيها وطفقت تقبله وتردد النكات التي يسر بها

— غن للماما يا حبيبي غن لها — وطلعت عالراس الجبل .

فوقف فريد قدام أمه وهو يجول بنظره فرحاً بينها وبين الطابخة ويشير بيديه وبرأسه اشارات لطيفة فتانة .

وطلعت عالاس الزبل
لسلف عَلّي البهلا
وسمعت الحمام ينوه
ينوه عَلّي البهلا
قلت لو يا حمام

صلي صلاتك ونام ...
صلي صلاتك ونام ...
— كل كل . أنسيتها ؟ راحت ...
— بلى . بلى . اسكتي
قلت لو يا همام
صلي صلاتك ونام
لاهت امك تسوء
الله يعطيك خيلا .

ونظر الى أمه فرآها تضحك وتمسح بالمنديل عينيها . ثم ركضت اليه فجثت امامه وطوقته بذراعيها تقبله هاتفة

— ولدي ، حبيبي ، حياتي ، مهجتي ، نور عيني .

ثم تبعده عنها قليلاً فتحدق فيه كأنها تنظر الى شيء عزيز توارى عنها ثم تضمه اليها مسرعة متلهفة كأنها تحميه من حيوان يحاول افتراسه

— ماما ، قومي نطلع علكلم .

فاخذته لطيفة وأجلسته على الكرسي قائلة

— بعد الفطور يا حبيبي . تقدمي يا بنتي قبل ان يبرد اللحم والبيضات

فجلست مريم الى المائدة تلتهم ابنها وتحاول اشحاذ شهيتها بشيء من عسل بلادها وقريشه . ولم تأكل الا قليلاً .

ثم نهضت مستسلمة الى فريد وخرج من البيت يجر لطيفة بذيلها .

فحملته على ظهرها ومشت قدام مريم الى الكرم . فاعترتها في الطريق نوبة سعال شديدة ورمت منها الوجنتين وأخفت هنيهة بحدقة عينها .

وبينا هي وولدها ولطيفة في الكرم . كان القس جبرائيل والقس بولس يتحدثان بشأنها .

— لا يجوز ان تقيم هنا .

— سننقلها الى لبنان بعد ان يتم ما حدثتك به وعليك ان تساعدني . فان في الزواج خلاصها وسعادتها .

— وهل ابن اخيك راغب ؟

— بل مصر وملح في ذلك . وقد انبأته برجوعنا وسيجيء من حيفا اليوم او غداً .

— واذا كانت لا تريد ما نريده لها ؟

— لا أشك في انها ترضى بما فيه خيرها . وفي كل حال كنت ناصحاً لها مرشداً مثلي . حبب اليها الزواج . فانه نافع لها ولابنها ولوالده . بل لازم متحتم . هو الحق الذي ليس غير الخير فيه . زواجها بابن اخي عارف يرفع عن الولد ذنباً ليس ذنبه يزيل من حياته ظلمات النبش ولطخة العار . وعارف في هذا العمل يكفر عن اثمه . ومريم تصادف فيه ولا شك زوجاً فاضلاً محباً كريماً عطوفاً حنوناً . لقد هذبه الدهر وعلمته تجارب الايام . لقد أصلح الشاب شأنه .

— ولكن مريم ...

— هب اني مخطىء في ظني فلست متحولاً عن عزمي · زواجهما لازم ضروري ، متحتم عليهما · ينبغي ان يكون للولد أب معروف فلا يامنه في مستقبل حياته · ينبغي ان يتزوج عارف بريم ليغفر الله ذنبه · ولا يهمني عاشت واياه بعدئذ أم لم تعش · الحق يا قس بولس حق الله يعلو ولا يعلى عليه · والعدل قبل السعادة · العدل فوق السعادة ···

جلست مريم تحت الدالية تنظر الى السهل المتسع امامها والى البحيرة الزرقاء الراكدة وقد ظللتها شمس الصباح بظلال الجبال القائمة حولها شرقاً وغرباً · لقد لقيت اباها ، ولقيت ابنها · ولم تكن تتوقع بعد هاته الدهشات المحزنة المبهجة دهشة اخرى · لم تكن تحلم بما يضمره لها القس جبرائيل وبما تكشفه لها مخبآت الزمان ·

— وماذا يهمني ابي ؟ اذا جهرت به اذا ادعيته أفضحه · فينبغي ان أنساه اما القس جبرائيل فقد صنع صنعاً جميلاً ليس في امكان بشر ان يكافئه عليه · صحيح · صحيح · ولكني مع ذلك أكرهه · خدعني مرتين · عذبني ليخلصني بما يظنه اثماً فرماني بما هو أشد عذاباً وويلاً · ومرضي من يخلصني منه ؟ جاء بي الى هذه الديار القاصية — الى هذا الغور المهلك ليجمعني بابني · وكان في امكانه ان يستصحبه الى مصر · ان في كل ما يصنعه شيئاً غامضاً خفياً · سراً يدل على حب الذات والكبرياء والاعتداد بالنفس · يكسر قلوب الناس ليقيم رأيه · يزدري اشياء الغير ليعزز اشياءه · يجر على الناس الويل والبلاء باسم « الحق السماوي » وباسم الله · فينبغي ان انساه ايضاً · ساشكره

في الآخرة يوم أقف امام الرب المهي · آه ما أمر الحياة ! لقيت والدي فلذة كبدي ولا استطيع ان أفرح بلقائه · لقيت والدي وكأنني لقيت عدوي · ألم يكن عدو أمي ؟ أكنت شقيت يا ترى لولاه ؟ أكنت لقيت من الحياة أمرّ ها لو انه أحب امي واكرمها فاحتضنتني ورعتني بالتربية · قذف بي الى هذا العالم وفرّ هارباً · جبان رعديد ! لئيم اثيم ! يستحق الذبح ··· وأين ابوك انت يا مهجتي ، يا حياتي ! أتجتمع به يا ترى بعد موتي كما اجتمعت امك بك فازدادت حزناً وغماً ؟ معلمي عارف افندي ! ابن الأكابر ! الاديب السري ! ويل الشبان امثالك ··· ولكني أحببته فجنى عليّ · أحببته حباً تضحك مني عليه · كنت ساذجة في تلك الايام · وخطيئتي الكبرى انني اذا احببت أحب حباً لا يدرك حدوداً ولا يعرف خداعاً · لو علمت اليوم مقرّه لذهبت اليه وولدي بيد والخنجر باليد الاخرى · شقيت الام فلا يجوز ان يشقى ابنها · لا ، وحياة الله !

بمثل هذه الافكار كانت تزيد نفسها اضطراباً وغمها غماً · ولا ريب ان اشتداد وطأة المرض عليها اظلم فؤادها وحرمها لذة العطف والحنان

— الحياة لعنة في الارض — هذا أحسن ما قاله القس جبرائيل · فالجميل في الحياة انما هو الطعم في شبكة الصائد · اللذات حبائل واشراك مهلكة · والبعد عن اللذات عذاب لا يطاق · ما العمل اذاً ، ما العمل ؟ الحياة لعنة في الارض ·

ولما وصلت الى البيت عائدة من الكرم وولدها بيألها ابوها

— لِمَ انتِ مضطربة كئيبة ؟

فلم تجبه . دخلت الى البيت ورمت بنفسها عَلَى الديوان وقد أعياها المشي ، وأظلم وجهها وقلبها ونفسها من التأملات المحزنة . فاقترب منها القس بولس يطايبها ويطمئنها ويمسح بمنديله العرق المتصبب من جبينها

— لا تخافي يا بنتي .

فقالت عَلَى الفور كأنها تضربه بما تقول

— لست بنتك . لو كنت ابي لما تركتني أشقى .

— اخطأت يا بنتي وندمت عَلَى خطيئتي

— وما نفع الندم وقد جوزيت انا عَلَى فعلتك . عشرون سنة من البؤس والعذاب والذل تقاضاها الدهر من دمي ولحمي ونفسي وفؤادي لقاء خطيئتك — ثمن الفك . ما اجمل هذا الدين دينكم ! تقترفون الآثم وتجرون البلاء عَلَى العباد وتملأون الارض فساداً ثم تلبسون المسح وتذرون الرماد عَلَى رؤوسكم . ثم ...

— مريم ! مريم ! بنتي !

ولم يستطع ان يفوه بكلمة اخرى . خنقته العبرات . ولكن مريم لم تعتذل به

— اي نعم . تلبسون المسح وتذرون عَلَى رؤوسكم الرماد ثم — هللوا . هللوا . ادخلوا مجد ربكم آمين . والله لاذبحنك واذبح ابني واذبح والده لو أكان لي أن اراه . وأليس بعد ذلك المسح واذري عَلَى رأسي الرماد وأعيش عَلَى الخبز المبلول بالماء قاموت تديسة وادخل مهللة مجد ربي . اذا كانت

الحياة لعنة في الارض فمجد [illegible] نحو كهة ذميمة · وخير [illegible] اتركني · اليك عني ·

وخرجت الى المصطبة قد [illegible] فجلست هنالك تسند رأسها بيديها وتتأمل امرها ومصيرها ·

فلحقها القس جبرائيل واخذ يدها بيده فرفعت رأسها خائفة ناقمة ثم أحنته يائسة مستسلمة · فقال يخاطبها

— انهضي يا مريم وادخلي [illegible] تستريحين قليلاً · انهضي الله معك فمشت واياه نحو الغرفة ·

— ادخلي رضي الله عنك · نامي قليلاً · استلقي عَلَى فراشك لقد اتعبتك النزهة · واطردي من قلبك مثل هذه الافكار التي جرحت بها قلب والدك · اطردي من فكرك كل ما يؤلمك ولا يعينك عَلَى الشفاء من مرضك · نامي يا بنتي قليلاً تستريحي ·

ثم جاء يخاطب القس يولس قائلاً

— لا تكلمها بالامر الذي تحدثنا به · دعني اعالجه واعالجها وحدي

—الفصل الثالث والعشرون —

دخل فريد الى البيت راكضاً ينادي الماما . فامسكه القس بولس واجلسه عَلَى ركبته يقبله ويقول

— الماما نائمة الان . ألا تحبني يا ابني ؟

— ومن انت ؟

— انا ابوك .

فهزّ فريد رأسه مشككاً ثم قال

— لا . لا . عمي القس جبرائيل قلي البابا ساب ظليف

— صحيح يا ابني . واليوم نراه ان شاء الله .

— اليوم ؟ البابا ؟ البابا كمان ؟

وجعل يصفق بيديه طرباً .

— اي نعم .

— ومن اين يزي ؟

— من حيفا .

— واين هيفا ؟

— حيفا عند البحر .

— البحر في تلهوم ؟

— لا . لا . البحر بعيد .

فهز فريد رأسه عابساً .

— لا يزني البابا اليوم .

وكان الصغير مصيباً في ظنه . لان عارف مبارك سافر من حيفا ذاك النهار الى الناصره فبات في بيته هناك . وعوّل على ان ينهض باكراً فيركب العربة الى طبريا فيصل الى بيت عمه في الغور قرب الظهر . وليلة كان في بيته بالناصره قص على والديه بعض قصة مريم وابنها واخبرهما بما هو عازم . فسكت ابوه مطرقاً واستشاطت امه غيظاً .

— جننت يا عارف . والله بالله ! اذا فعلت هذه الفعلة — اذا تزوجت بهذه الفتاة الساقطة لا ترى وجهي في ما بعد . رح افعل ما تشاء . عمك مجنون . وقد أصبت بعدوى جنونه . ابن مبارك يتزوج براقصة ساقطة ، بل بخادمة من خادمات بيته . يا ربي يا ربي ! أي ذنب اقترفنا ليكون هذا قصاصنا ؟ استحلفك بالله وباجدادك يا عارف ان تقلع عن قصدك — أن تسمع كلمتي — أن تعمل بارادتي . اكراماً لامك — الحزينة . عد الى رشدك . ارجع غداً الى اشغالك بحيفا . اترك هذه الفتاة وشأنها . اتركها لعمك القسيس المجنون . هو يخلصها ببركاته وصلواته

فانتهرها زوجها قائلاً

— اسكتي يا امرأة . اسكتي . في الامر ما لا تدركينه انت . القس جبرائيل اعلم مني ومنك بما هو حق وما هو باطل . وعارف بعد هذا وذاك

راشد يحسن ادارة شؤونه بنفسه . هو الآن ولي امره . روح يا ابني ، اعمل ما تشاء ، وفقك الله !

— وانت ايضاً مجنون . انت ايضاً تريد ان ترمي بابنك الى التهلكة ولا تهمك الفضيحة والعار

فانبرها زوجها ثائرة فخرجت الست هند تسبه وتسب اخاه وتدعو على ولدها وعليهما بالموت العاجل .

وفي صباح اليوم الثاني لما كان عارف راكباً العربة قاصداً طبريا جاء القس جبرائيل يسأل مريم ان ترافقه في نزهة الى تلحوم ليريها خرائب تلك البلد القديمة . وكان قد سكن جأش مريم ذاك الصباح سكوناً يتلو العواصف أو يتقدمها منذراً بها . فحدثها القسيس في الطريق بما قد يكون اليوم من امرها وكشف لها الاخير من ستور السر المحجوب . فنظرت مريم الى ما وراءه ساكتة باهتة غير حافلة . وبعد ان فكرت قليلاً قالت لمحدثها

— عملت دائماً بما تشاء ، فلا اقاوم اليوم ارادتك . انني راضية اكراماً لولدي . سأقبله زوجاً لي وان كنت لا استطيع أن اعيش واياه

— بل ستعيشين واياه سعيدة ان شاء الله . عارف يعشقك ولقد ذرف الدموع فرحاً حين اطلعته على حبك وبشرته برجوعك

— ولقد كدت أغرق في بحر من دموع العشاق المخادعين . ويا ليتك لم تنقذني منه حية .

— انسي الماضي ماضيك يا مريم . انسي تلك الايام السوداء

فنظرت مريم اليه نظرة حادة محرقة وهتفت قائلة

— الماضي ؟ ماضي ؟ هو شبح مفزع يمشي امامي . يظلم الافق في ناظري منه . يحبس عني نور الشمس . يقود نفسي الى المهاوية . الماضي يا قس جبرائيل سوس ينخر في عظمي . نار تتأجج في دمي . نمل يدب في جسمي . الماضي ؟ ليتك تعرف كيف تعيش المومسات — وقد دعيت بمصر مومسة — ليتك تعرف كيف تعيش المومسات وكيف تموت القديسات البارّات . تلبس البائسات الحرير فيظن انهن راتعات في بحبوحة من العيش باهرة زاهرة . وان لم يلبسن الحرير يمتن جوعاً . حريرهن مسوحهن . والطيوب التي يذرينها على شعورهن وصدورهن انما هي رماد التقشف والتقوى . المومسة يا قس جبرائيل انما هي القديسة . تمشي وراء ماضيها الى النار مستشهدة . وانا الان امشي وراء ماضي . ومهما كان من مستقبلي فان ما اساق اليه هو هو . لا ينقص بلاؤه ولا يزيد . انت يا قس جبرائيل خلصني وانت صليبي . قبلتك وحملتك صابرة راضية . ولكني لعنتك مراراً في قلبي ولم ازل اكرهك

فحاول القسيس ان يسكن روعها ويعزيها ببعض كلمات ذاكراً مريم المجدلية فنهضت عن الحجر الذي كانت جالسة عليه في ظل صفصافة قديمة وغيظ التهكم واليأس يحتدم في ناظريها

— اي نعم . مريم المجدلية ! المومسة القديسة . شهيدة الايمان والغرام والاوهام . وانا . انا ...

ثم اشارت بيدها باسمة الى سلسبيل من الماء قريباً

— تفضل يا مولاي ، هذا الماء وهذي يدي وهذا شعري . تفضل يامولاي الى الغدير — اطلك اليوم تبارك اكليلي . فتحرمني اكليل الاستشهاد

وضحكت ضحكة اعادت الاثم الى جفنيها واللمنة الى فمها . فاغضى القس جبرائيل على ما بدا من تغيظها وتجديفها وقام يناعمها ويطايبها وهو عائد واياها الى البيت .

وبينما هما عائدان كان قد وصل عارف من الناصرة فاستقبلته لطيفة طاهية بيتهم القديمة وفريد الصغير .

يقال ان الغريزة اصدق من العقل . ولا ريب انها تصح غالباً بين الاباء والبنين . لما شاهد عارف الولد الذي لم يره قط حياته نسبه اليه وسأله عن الماما . وكان الصغير يحدجه بنظرات من نظرات الاطفال المبهمة كأنه يستطلع حقيقة امره . ثم قال وهو يقبل الغريب

— انت البابا ؟

— نعم يا ابني . انا البابا .

— الماما لاهت تسم الهوا مع عمي القس جبلايل . وتفلت منه اذ شاهد امه ورفيق يلاقيها ويبشرها بقدوم ابيه وهو يصفق بيديه طرباً

— يا ماما ، يا ماما . زا البابا ، زا البابا !

فوقفت مريم في الباب وآلدم واقف في عروقها تنظر الى الشاب الذي لم تشاهده منذ خمس سنوات نظرة الغريب القريب ، بل نظرة الهاجر المحب .

فتقدم اليها يقول

— اتسامحيني ؟ أتغفرين لي ؟

فاحنت مريم رأسها ولبثت ساكتة . فمدّ عارف اليها يديه مستغفراً مستعطفاً .

— سامحيني . أغفري . اصفحي .

فبدت على وجنتيها الدموع كالطل على الورد وأخذت يده فاعلة ساكتة واجفة . صافحته اليد منها ولم تصافحه النفس . وليس عارف ممن يشعرون لاول وهلة بيشاشة النفس أو بهجمها . فظلّ قابضاً على يدها وتقدم واياها فاجلسها على الديوان يعتذر اليها ويستغفرها .

فدبت كلماته في قلب مريم دبيب النار المدخنة في جوانب البيت فادفأته وأظلمته معاً . أحست بحنو طالما تاقت اليه في هذه الايام — حنو صافٍ لا تمازجه النايات السافلة ولا يشوهه حب المكارم والجميل — فجاءها كالعاصفة دفعة واحدة فضاقت منه صدراً . على انه وان كانت قد ضعفت بل ضاعت ثقتها بالناس وصارت تخشى حتى المعروف منهم والاحسان رضيت بما ساقته اليها الاقدار اكراماً لولدها

جلست على الديوان تنصت الى كلمات عارف ، معلمها السابق ، والد ابنها ، خطيبها الان . ولم تفه بكلمة واحدة . وفي تلك الآونة دخل القس بولس فسلم على عارف مباركاً . فانبرى القس جبرائيل يتمم واجبات التعريف فانتظرب عليه . فاراحه القس بولس من حيرته وتردده قائلاً

— اعرفك بنفسي — انا زوج ساره الراعية التي توفيت في الناصرة منذ خمس سنوات ، والفتاة الجالسة الى جنبك بنتي .

فهبت عارف لهذا الخبر وشرع يقلب نظره بمريم وبوالدها القسيس

— لا تتعجب من جهري . من لا يخجل من الصدق امام الله لا يخجل منه امام الناس .

فقاطع القس جبرائيل الحديث قائلاً

— دعونا من هذا الان . لقد اشرقت الشمس — شمس الحب والحق — وازفت الساعة . أترضى يا عارف مريم زوجةً لك ؟

— نعم . نعم .

— أترضين يا مريم عارفاً زوجاً لك ؟

فلم تجب مريم فاعاد القسيس السؤال .

— أتقبلين عارف مباركاً عريساً لك ؟

— ولماذا تسألني ؟ ألم ابح لك بسر قلبي . كمل عملك وارحني منك

— سري عنك يا بنتي خففي من روعك . هذي ساعة فرحك . لتكمل مشيئة الله .

ونادى اذ ذاك أجيره ابا ابرهيم ولطيفة فقال يخاطبهما

— عندنا الآن عرس يا اولادي . كوني انت الاشبينة يا لطيفة . وانت يا ابا ابراهيم الاشبين .

وبدأ القس جبرائيل بالصلاة . وكان فريد الصغير اثناء ذلك واقفاً

الى جنب امه متمسكاً بردائها رصيناً عبوساً جائراً بما هو جارٍ امامه . والقس بارك القسيس اكليل العروسين ركض فريد الى لطيفة يقول

— الحلوف زاع . اسمعيه يمعق . روحي اطعميه . ثم جاء يقول لامه

— اطلعي نطلع علكلم ونأخذ البابا معنا . العنب استوى . وانا اقطفله العنقود .

فضحك القس جبرائيل معجباً وقال

— خذوا الحقيقة من هؤلاء الصغار . أجل لقد استوى العنب وحان وقت القطاف . ليبارككما الله ليبارككما الله .

فنظرت اليه مريم نظرة ودّت لو انها خنجراً في فؤاده .

ثم هنأهما القس بولس وودعهما قائلاً

— اذا كنتم تستحيون بي فسأخفي منذ الان وجهي وامري عن الناس . واقيم والقس جبرائيل متنسكاً في هذه الديار .

— لا يا ابي لا . بل يجب ان تقيم معنا — معي انا . لا طاقة لي على فراقك . سامحني ابي ، اغفر لي . لقد اهنتك وجرحت قلبك ساعة كنت متألمة متعذبة . سامحني .

واخذت يده تقبلها باكية . فقبلها القس بولس ووعدها ان يقيم قربها

— اكراماً لامك واكراماً لك يا بنتي . ويا ليتني توفقت في شبابي الى هذه السعادة التي انعم الله بها عليك يا عارف . ليتني المست الى مثل شهامتك وفروسيتك ووفائك . بارككما الله ومتعكما .

ثم قالت مريم تخاطب زوجها

— قم بنا نطلع الى الكرم اكراماً لفريد . احمله على ظهرك . امش قدامي على مهل . لا تسرع فالمشي يتعبني .

وبينما هم سائرون في البرية جلست تحت صفصافة تستريح وقد اعترتها نوبة سعال شديدة . فسألها زوجها

— أمن زمن تسعلين ؟

— منذ أشهر . ولم تشتد علي الوطأة الا في هذا الشهر .

— وهل استشرت الطبيب ؟

— لا تسل عما يزيد بالامي .

ثم نهضت مستنشطة تظهر من الضعف قوة ومشت مصعدة حتى وصلت الى الكرم على رأس الجبل .

— ما أبدع هذا النهار ، وما اجمل المشاهد حولنا ! تغيب الشمس فتودعها حمائم البحيرة نائحة باكية . ثم تشرق فتستقبلها نائحة باكية . كأنها تدرك ما لا يدركه الانسان من اسرار الحياة وخفائق الوجود . انا بائسة يا عارف وانت قليل الحظ ، سيء الطالع . عدت الي مستعطفاً مستغفراً يوم لا استحق ان ارى وجهك ولا ان اسمع كلماتك . لقد تدنس جسمي ، وتدنس قلبي ، وتدنست نفسي . آه اواه ! حياتي نغمة من نوح الحمام . حياتي قطرة من دم طائر مذبوح . حياتي شعاع من هذه الشمس الغاربة . شعاع لامس الارض فتبدد نوره . نقطة دم امتزجت بالتراب فاعتراها الفساد .

اغنية سمعتها آذان البشر فضحكت منها قلوب البشر . راقصة ....

فقاطعها فريد وهو قادم اليها يقول

— ماما . هذا عنقود للبابا .

— خذه منه . هذا عنقود السعادة . اذا قبل على الدالية يبابي . واذا قطف لا يدوم . بل هذا الصغير الحبيب عنقود سعادتنا . ويلاه ! لولاه اليوم لكنت سعيدة . لولاه لعرفت ما افعل ، لعرفت مصيري ، لقررت امري ، لانهيت حياتي .

— ما بالك يا حبيبتي . ولمَ هذا اليأس ؟ اذا كان مرضك يقلق بالك فمرضك ان شاء الله يزول . غداً اعود بك الى حيفا نستشير الطبيب . وان كنت لا تحبين الاقامة هناك فاقيم واياك حيث تشائين . ننتقل الى لبنان — الى مصر — الى باريس — الى حيث يميل قلبك .

— قلبي لا يميل الى شيء . كان قلبي نار موقدة فصار رماداً . ويلاه الله في عيني كالنور . وحياتي كالنبع المالح الذي شاهدته اليوم ، الكامن في الادغال تحيط به الدفلى وورق البردي والقصب والشوك . فاذا اخترقتها سالماً تشاهد غديراً بهيجاً مترقرقاً يركض الى البحيرة منشداً نشيد السرور ، فتهتف قائلاً — ما اجمل وجهك في ظلال الدفلى والقصب . وما ابدع صوتك في سكينة الادغال . ولكنك اذا شربت منه تجد مياهه مذقة مالحة

— اكفاك من هذه التأملات المحزنة . اكفاك من هذه الاوهام . تعالي نشاهد من ذاك المطل مشهداً يزيل الاكدار ويبهج القلوب .

— اين فريد ؟

ونهضت مريم مذعورة تتلفت بمنادية ابنها · فاجابها من تحت الدكة ثم صعد الدرجة وجاء راكضاً هاتفاً

— ماما · ماما · عصفور · عصفور ·

وكان الولد قد رأى عصفوراً متفلتاً من قفيص نصبه هناك احد الصبيان ولم يزل على جنحه شيء من الدبق فلحقه وامسكه وجاء والديه يريهما اياه بهجاً طرباً ·

— عصفور عصفور · مسكته تحت المفه ·

فتأمله عارف وقال مخاطباً عروسه

— قلبك مثل جنح هذا العصفور · حط على قفيص الصائد ثم تفلت ولم يزل الدبق عليه يمنعه من الطيران · لذلك انت حزينة يائسة ·

— وما اقل حظ من يمسكني ويغسل جنحي · تعال يا حبيبي نمشي والبابا

— ماما · بكاله اغسل العصفور واربطه بخيط ·

— برافو فريد ، برافو ! لقد رد صغيرنا عليك وأفحمك · اركب على ظهري · هات يديك · مكن رجليك · امشي قدامنا يا حبيبتي فنماشيك · على مهل · على مهل ·

ولما وصلوا الى ذاك المشرف العالي بدت البلاد امامهم في حلة باهية حاكتها شمس الغيب فاكسبت مروجها رونقاً وآفاقها اتساعاً · هنا سهل النوير يزدهي ببساتينه وتترقرق فيه الينابيع ماء طهوراً ، وماء اجاجاً ·

وهنالك الى جوانب البحيرة جبال شامخة قائمة كالقلاع على ضفاف البحار ، وسواد احراجها وادغالها يستحيل من نور المغيب ازرقاقاً فاحمراراً فاصفراراً. والبحيرة كالطفل على صدر امه هادئة ساكنة تنصت الى هديل الحمام وتسمع فوق المديل حفيف اجنحة النسور . وهنالك شمالاً يبدو جبل الحرمل ابيض اللمة يحيي الجبال المتوارية وراء قمة طابور . والشمس فوق الناصرة المحجوبة عمن وقف فوق سهل القوير تشع باشعتها الصفراء المائلة فتملأ السهول المنورة حزناً وتصفر لفراقها وجوه الربى . وفي هذه السكينة يسمع الواقف على ذاك الجبل طنين اجراس الواشي عائدة الى زرائبها واجراس خيل العربات في الطريق المختبئة تحت جفن الجبل .

فقالت مريم وهي في وسط ذا المشهد أجمل واحزن ما فيه — غروب الشمس غروب الحياة .

ثم ضمّ فريد صوته الى اصوات الحمام والاجراس سائلاً

— بابا ، اين تلوه الشمس ؟

— تسوح في الارض يا حبيبي .

— وبكله تلزع ؟

— بلى .

— وليس تلوه الليله اذا كانت يدها تلزع بكله . ما تتعب من المسير في الليل ؟

فضحك ابوه وقال مطمئناً

— غداً نعزمها تبيت عندنا ·

فضرب فريد كفاً على كف هاتفاً

— ايوا · وبكله انام انا والسبس · انا احب السبس ·

فضمته امه الى صدرها وجعلت تقبله ضاحكة باكية ·

ولما عادت واياه وزوجها الى البيت كان انيس بولس وانيس جبرائيل ينتظرانهم للعشاء · وكانت لطيفة قد أعدت لهم مائدة فخمة من سمك البحيرة المشوي والمقلي ولحم الضان المطبوخ بالخمر والدجاج المحمر والارز المفلفل والمحاشي والرمان المفروط بالسكر والجبن والعسل وتوابعها · فقدمت الالوان دفعة واحدة على طبق كبير من النحاس الابيض الشامي المنقوش وهي تقول

— لو كنت احسن الكتابة يا بنتي مريم لكتبت لك لائحة الطعام · تفضلوا ·

ولم يفهم غير مريم هذه الاشارة · فابتسمت واشارت الى لطيفة ان اسكتي · وجلس الجميع على مسانده الى المائدة ولطيفة واقفة تنتظر الاوامر وتقص عليهم بين الفصل والفصل من قصص فريد وعجائب ذكائه ·

وقد كان اصغاء مريم الى هذا الحديث اكثر من اكلها · وبعد العشاء قدمت القهوة وجاءت لطيفة باركيلة الى سيدها عارف افندي · وخرجت ومريم الى المصطبة قدام الباب تستنشق الهواء · ثم عادت تقول لزوجها — غداً نسافر من هذه الديار · لا اقدر ان اعيش هنا · الوحشة تروعني · والحر

يهلكني . اكاد اختنق .

— موءكد ، موءكد . سنسافر غداً .

ودخلت مريم الى غرفتها تخلع ثيابها . ثم جلست امام الشباك تتأمل الظلمات المخيمة على السهول والجبال . وكان الليل ليل النور هادئاً خامداً ساكتاً لا يحركه من اصوات الارض غير خرير الينابيع التي لا تسمع في النهار وصرير الجنادب الذي لا يتعشق غير الظلمة ولا يتحمس في انشيده لها الا اذا سكت الليل من شدة الحر منصتاً . وكانت ترى بين الادغال وفي جوانب الربى اقساماً من مجاري المياه تتلألأ كأنها سيوف وحراب امتشقتها العبيد السود ليدفعوا عنها بلية مقبلة . نظرت الى السماء فرأت النجوم تهتز فيها كأنها دراهم في يد بخيل أو ازاهر من النيلوفر في بحيرات يداعبها النسيم

شربت مريم كأساً من يد الليل فزادتها ارقاً وغماً . نظرت من شباكها في وجه هذا الليل الاسود وفي عيونه المتعددة البيضاء الصفراء فهالها جموده وسكوته وارقها منه تلك اليد الممدودة تحمل كأساً اخرى — كأس الذكرى والاسى . وكأنها سمعت تنهداته وهو واقف امامها حزيناً مثلها يقول — تعالي احملك الى بلاد النسيان . تعالي اسقيك في بيتي غير هذه الكأس — في بيتي عند باب الشمس

أحست مريم بشيء يشتعل في فؤادها ، بل كادت تسمع فيه تأجج النيران . فهتفت صارخة — ليت شعلة من الجحيم تحرق جسدي . جسدي هذا الذي تضن به نفسي علي .

وراحت الى الباب فاقفلته · ثم عادت تفكر بما جرى لها في فترة من الزمن قصيرة وبما صادفته من اسباب السعادة التي تسعد أية فتاة في غير حالها

— لقيت ابني بعد ان ظننته ميتاً · لقيت ابي فاذا هو اب محب حنون رقيق الشعور كريم السجايا عظيم الخلق · وعاد من قطف زهرة حبي يستر حملي مستغفراً فاعتنق ذنبي وتزوج عاري · ارى حولي ايادي لا تتحرك في غير خدمتي · اسمع حولي اصواتاً لا ترد غير كلمات الحب والعطف والحنان · انفس جبرائيل يغمرني باحسانه · والدي يدهشني بعطفه وحنانه · عارف يحزنني بروءته وشهامته ووفائه · وولدي ولدي ! آه من تنات صوته وازاهر ابتسامه وضياء نظراته · لولاها لكنت سعيدة · لسلمت نفسي الى الليل يحملني الى عالم النسيان يدفنني في قلب ظلماته · نعم نعم · بنوا لي هيكلاً من ازاهر السعادة فدخلته فاذا هو خربة تصفر فيها الرياح · آه ثم اواه · ما اجملك ، ايام الصبوة ! ايام السذاجة ، ما ابهاك ! يوم كنا نقطف زهرة الاقحوان فنعد بتلاتها موءمنين بما تقول واثقين بما تحكم كأنها صوت من السماء · واليوم اليوم ؟ ان اصوات السماء المتجسدة حباً واحساناً تنبع بملء آذان منا صماء وقلوب مستحجرة · ربي ما اجمل جسد الحب ، وما اقبح نفسه ! ما ابهجه في عيني ، وما اكرهه في فوءادي ! ما اجمل الفضيلة بعيدة وما اقبحها قريبة ! تنادينا من العلاء فننصت اليها ونجيبها ونسعى اليها طاقتنا · ثم نلمسها بيدها المحناة بنماء الجميل فننفر منها هاربين ·

وسمعت اذ ذاك بومة تنعق فاستنكرت صوتها ونهضت عن الكرسي

العودة من الجلجثة — للمصور بيشون

مذعورة . فجلست على الديوان قرب السرير تمسح العرق المتصبب من جبينها وزوجتيها وصدرها فعثرت بالذخيرة المعلقة في عنقها فجعلت تقبلها مناجية امها وذكرت الليلة التي حلمت ذاك الحلم فسمعت امها تقول لها — اخرجي من القاهرة

— خرجت من القاهرة التي فرت فيها وسقطت فيها . وها انا في محيط من السعادة اسمع اصوات الحياة — حياة الفن ، حياة الجهاد ، حياة المجد ، حياة الشقاء ، فأود ان اليها . امي ، امي ! انت الوحيدة التي لا يغير البعد ولا القرب حبها ولا الموت ولا الحياة . ليتك الآن الى جانبي الشعر بلمس يدك واسمع صوت حنانك اللذيذ .

وقفت امام الشباك كأنها تنادي امها . فسمعت زوجها يطرق الباب فلم تفتح . فظنها عارف نائمة وعاد الى غرفته . ولكن مريم حاولت ان تنام فحال الحر دون رغبتها فخرجت من غرفتها الى الفناء تمشي حافية على البلاط . فسرت في رجليها الى قلبها نفحات باردة انعشتها . ثم تحرك الليل فهب نسيمه فبرد جسمها المحترق وجفف العرق المتصبب منه ولامست نفحات السحر جفنيها فاخذها النعاس .

دخلت غرفتها ونامت ساعة فايقظتها نوبة من السعال شديدة اقامتها فجأة من سريرها . فسمعها عارف تسعل فنهض من فراشه مسرعاً وجاء بحمل شمعة مضيئة . فتح الباب ودنا من مريم يسند رأسها وهي تسعل فاحس برعشة غريبة مضنكة اذ لامست يده شعرها المبلل بالعرق البارد . وجبينها

الدم في عروقه حين رأى الدم في الطشت امامه · فمرّت في مخيلته كالبرق صورة عمه القسيس وسمع صدى لعنات رددها في قلبه

عادت مريم الى سريرها فجلس عارف على كرسي الى جانبها يربت يديها ويواسيها

— اتركني يا عارف · لا بأس عليّ وحدي · رح نم يا اخي · رح نم · اعطني الابريق قبل ان تتركني · وملعقة من تلك القنينة · سلمت يداك · اتركني الان · واقفل الباب ·

— الفصل الرابع والعشرون —

كان القس جبرائيل منشغلاً بفحص اوراق له قديمة حينما دخل عليه القس بولس والقلق باد في وجهه · فحياه يسأله عن حاله — ومالي اراك مضطرب البال ؟

— هل اخطأتُ في ما فعلت ؟

— لم افهم ما تريد ؟

— هل اخطأت في جهري ان مريم بنتي ؟

فعمد القس جبرائيل الى اوراقه يقلبها وهو يقول دون ان ينظر الى اخيه الراهب — وهل انت مرتاب بما تعلمه حقاً ؟

ثم دفع اليه تلك الورقة التي لقيها عند حمامات طبريا لما كان هناك واحتفظ بها . فقرأ ما فيها القس بولس مدهوشاً وقد علم انها من اوراقه — من اوراقه ، وبخط يده

— فيها جواب على سؤالك .

— نعم . نعم . وفيها ما هو أرسخ بنفسي من التعاليم الدينية والادبية . هذا يا قس جبرائيل من اوراقي . أنا كتبتها . وحق ما كتبت «ولاك يا ربي لمن يعترف المجرم الاثيم » « الاعتراف مرعم النفس » حق هذا . حق ما كتبت . وبهذا ابشر . وبهذا انا عامل . ولكني احس من نفسي الان وهنا فاعذرني اذا لجأت اليك . العلم لا ينفع في الشدات نفع نفحة من نفس سامية او شذرة عزاء وتشجيع من ذي خلق مجيد عظيم . فلا تضن علي بالبسير من كثيرك . اني متيقن يا قس جبرائيل ان ايامي ستكون كلها سوداء اذا قضيتها بعيداً من بنتي . واذا أقمت معها او قريباً أكون عليها وعلى زوجها منشأ عار دائم وبلاء مستمر . انا معذب بين واجبين — واجب بشري وواجب الهي . بنتي احبها ولا اطيق وحياة الله فراقها . ولما جهرت بالحقيقة أمام عارف زلقني ببصره كأن يرميني بافظع الاتام . طعنني طعنة ادمت فؤادي كسرت نفسي . فعلمت آسفاً انه من المستحيل ان ارى ابنتي بعد ان تنتقل الى بيته

— ستراها هنا . ستجيء مريم من حين الى حين في فصل الشتاء لتقضي عندنا بضعة اسابيع .

— ولكنها لا تقيم وزوجها بلاي

— كلام النساء . فانها لتتساك حين تشفى من مرضها وتتسافى . فتنصرف عنك وعني الى زوجها وولدها .

— وهل تظنها تشفى من ذا المرض . اني لاخشى عليها منه . ولا احب ان افارقها ما زالت مريضة . أسفت لجهري المبتسر . ليتني لم افعل

— ان ما فعلت حق . وقد تكون واهماً في ما تظنه بمارف . فهو كريم الاخلاق شريف النفس .

— لا انكر ذلك . ولكنه لا يطيق ان يرى في بيته الراهب الذي هو والد زوجته . ولقد طالعت ذلك في عينيه . ولا لوم عليه . على اني اظن انه سيساق الى ما فعل بما تقول انت يا ابتي . لا تسيء فهمي . اظنه وزوجته ينجذبان اليك مطيعان لك ، عاملان رغم ارادتهما بمشيئتك . ولا اظنهما بعيشان سعيدين . اذا شفيت البنت من مرضها .

— يا قس بولص . انت اطول مني باعاً في العلم والفلسفة والاداب . ولكن نفسي ترى ما لا يراه علمك . انما رجل الله يا قس بولص من عمل بحق الله . واقبل شاكراً مستسلماً كل نتائجه وعواقبه . وحق الله ما تم عندنا البارح . وحق الله ان نعيش صادقين مخلصين وان عشنا نعيش باثمين

— وانا اليوم كسير القلب . كسير النفس . بل انا اليوم اشد التاعج بؤساً وبلاء . بنتي . بنتي . حرمت رؤيتها عشرين سنة ولم انسها يوماً واحداً . واليوم وقد حقق الله بغيتي القصوى يقف حاجزاً بيني وبين عينيه . أيمنعني

الله نعمة فيحرمنيها الانسان ؟ لا وحياة الله لا . سأقسم قربها ولو متنكراً . سأزورها ولو شحاذاً

— لو كنت خامل الذكر لاستطعت ذلك . ولكنك معروف مشهور حيث سرت وحيث اقمت . والجرائد اليوم تلهج بذكرك . وا اسفاه . اقرأ ما كتبته عن غصن البان واصحابها الرهابين . قد وصلتني هذه الجرائد اليوم

طالع القس بولس مقالة في احداها ونهض يلطم خديه ومنكبيه .

« قد قتل القس بولس عمون الواعظ الشهير بغصن البان الرائحة وفر هارباً واياها » هذه الكلمات في الجريدة سملت عينيه ومزقت احشاءه — رحماك ربي ! رحماك ربي ! ان بلايا ايوب كلها لو بليت بها لاخف علي من هذه البلية . سأطلعهم على الحقيقة . سأطلعهم على الحقيقة . نعم نعم من اسر سريرة ألبسه الله رداءها . ليعلم العالم اذا بدخيلتي . بسري . بذنبي بعاري .

وعمد الى القلم والورق يكتب كتاباً صموياً الى جرائد القاهرة يقول فيه ان غصن البان بل مريم الناصرية هي ابنته من لحمه ودمه . وشخص تلك الساعة الى طبريا فسلم الكتاب الى مدير البريد هناك فنفث بعض كربه . وعاد الى البيت في الغوير ماشياً يجتاز في طريق جميلة تطوق الربى الى جانب البحيرة متغلغلة في البساتين منسابة في الحقول . فدخل المجدل والشمس تميل الى المغيب وجلس اذ وصل الى تلحوم يستريح . فشاهد في خرائب تلك البلد ما رسمته الشمس في اطلالها من الاظلال والاضواء

المنقطعة . فقال في نفسه — وما اشبه الدين اليوم والبر والتقوى بهذه الخرائب المقدسة وما يتخللها من نور زائل وظل يميل الى الزوال . وكل ينكر الشمس ويظن ذراعاً من النور نور الله الازلي الابدي . وانت ايتها الشمس . بل انت ايها السيد المسيح محجوب سناوك . مشحوب بهاوك . الويل لك يا كفرناحوم . الويل لك يا بيت صيدا . يا كفرناحوم مصر . يا كفرناحوم قرنسا . الويل ثم الويل لك . بل الويل ثم الويل لكتبه هذا الجيل وفريسي هذا الزمان . وانا منهم . انا القس بولس عمون — انا ايلياس البلان . منهم . اقمت بينهم خمس عشرة سنة . اردد رطاناتهم . وازين خزعبلاتهم . واسلك مسلكهم . عابداً تزاويقهم . متناهياً في سبيل معبوداتهم . بلى . بلى . أفلم يرقني رقص غصن البان فحملت عليه ؟ أو لم اقل في نفسي ليس في ذا الرقص ما يفسد الاخلاق ويخل بالاداب ثم تقدمت به من علّي منبري ؟ قريباً . احسست بميل الى تلك الفتاة وقبلتها فلعنت الاثنين لان التقليد كان مستعبداً نفسي والخبث مالكاً معقولي . ارحمني يا الله حسب رحمتك وحسب كثرة رأفتك امحُ معاصيَّ ومهما كان من امري وامر بنتي فان حناني الابوي اللهم حنانك . وما حبي اللهم الا ذرة من حبك .

صلى القس بولس في خرائب كفرناحوم صلاة المساء وعاد الى البيت يناجي نفسه ويقول — الرقي الحقيقي والدين الحقيقي والاداب الحقيقية انما هي في خروجنا من انفسنا حين يتهدم هيكلها وتغيب شمسها . حين تعمى بلى . بلى . ولماذا حمل بياني عَلَى ما اقره وجداني ؟ لاني ولا مشاحة كنت

كالطلل الدارس في المغور الدامس · حين تمسي مثل كفرناحوم ·

نام تلك الليلة وفكرة جديدة تشرق في نفسه · وفي صباح اليوم الثاني اخبره عارف بما قاسته مريم ولامه على مجيئهم بها الى الغور · فقال الخوري بولس — والاجدر بك ان تلم عمك

— عمي ؟ لا ادري ما يصنع عمي · اعماله تحير العقول ·

ثم جاءت مريم تقبل يد ابيها وتقول — سنسافر اليوم · هذه الساعة · ألست متأهباً يا ابي ؟

— لا يا بنتي · لا يمكنني ان اسافر واياكم · ولا ان اقيم في المدينة معكم ولكني سازوركِ من حين الى حين ·

فصاحت مريم وقد اغرورقت عيناها · أتهجرني ابي ؟ أتهجرني لي شدتي

— ولكن زوجك يا بنتي خير رفيق وخير اب لكِ

— لا وحياة الله ! لا اسافر بلاكَ · سابقى هنا · ساقيم واياك وولدي حيث تقيم · وساخدمك واكون لك ابنة محبة طائعة لا يهمها في العالم غير ابنها وابيها ·

— ولكنك في حالة تقضي عليك بمشورة الطبيب وتقضي علينا بخدمتك والاعتناء بكِ ·

— ولماذا تتركني اذاً · دخيلك ابي · تعال معنا ·

فقال عارف معقباً بلهجة باردة على كلام مريم

— تعال يا ابني معنا · تعال وعمي تقيمان في البيت عندنا على الرحب

والسعة . وليس ما يوجب عليك ان تطلع الناس على دخيلة امرك

فقال القسيس والنار تحتدم في ناظريه — ليس ما يوجب علي الصدق والاخلاص ؟ انت شاب يا ابني تبتسم للحياة فتبسم الحياة لك . ولا تدرك ما في اعماقها من البؤس والشقاء . اطلعتك على سري فازدريتني ولا حق عليك . ولست انا لصاً ولست نبياً . فاسلك راحتك واندرك بما قد يكون من امرك . كشفت لك سري لاني لا اريد ان اخدعك فتخدع نفسك وتخدع زوجتك . فهل تنكرني الان فتخدع الناس وتخدع الله ؟ سأبقى بعيداً منك واذا انكرتني انا عمك والد امرأتك فلا احرك ساكناً في تكذيبك . اعمل ما تشاء وما تطمئن له نفسك ونفس زوجتك .

— لا تطمئن نفسي يا ابي الا بقربك مني . والدي العزيز لا تهجرني بعد ان لقيتني . هذه ذخيرة امي على صدري استحلفك بها ان تسافر وايانا وتقيم عندنا . واذا كان عارف لا يريد ذلك فانا افضل الاقامة واياك في هذه البرية . فاموت بين يديك سعيدة . نعم نعم . افضل ان اموت بقربك على ان اعيش بعيداً منك .

وجاء اذ ذاك القس جبرائيل يقول — وهل وطنتم النفس على السفر ؟ فقال عارف نعم وقالت مريم — لا

فاسر القس جبرائيل الى القس بولس كلمة ثم قال — سافري يا بنتي مع زوجك وولدك . وبعد يومين ازورك والقس بولس في بيتك الجديد واذا اصطفتم في لبنان نرافقكم ونقيم وايا كم هناك .

— اصحيح ما تقول ؟ أتسافر وايانا الى لبنان يا ابي · اذاً لنسافر من هنا

— ذلك مستحيل · ينبغي لي ان اعود اليوم الى حيفا لقضاء بعض حاجات وسنسافر اذا شئت من هناك بحراً

— ليكن ذلك يا بنتي · سافري اليوم وزوجك

— وهل تسافر وايانا الى لبنان ·

— نعم · نعم ·

— وبعد يومين اشاهدك بحيفا عندنا ؟ أتزورنا بعد يومين ؟

— نعم · نعم ·

— ونسافر يومئذٍ الى لبنان ·

— نسافر الى لبنان

وبينما كان القس جبرائيل يتناول العشاء وضيفه ليلة ذلك النهار خاطبه قائلاً — ما ضرك لو اقمت عند بنتك ؟

— لا يضر ذلك بي بل يضر بها وبزوجها

— وهل انت متيقن ؟ هل انت موقن ان عملك هذا انما هو اكراماً لها فقط · لا تجبني على هذا السؤال · أجب نفسك · أجب ربك ·

— كل كلمة من كلماتك يا قس جبرائيل تفتح باباً من الحق للنفس وبابا من العذاب ·

— والعذاب في سبيل الحق عذب · وانه لمحتم علينا قبول ما جرّم

السالف من اعمالنا وذنوبنا . القضاء لا يرد . والله سبحانه لا تُرد احكامه . وان الحقيقة التي تظهر النفس لفوق السعادة . اي نعم . وما شأن السعادة يا ترى اذا قابلناها بفضائل النفس السامية . بالصدق والاخلاص والبطولة والصبر والاستشهاد في سبيل الحق . فالحق يعلو ولا يُعلى عليه . ما كان مكتوماً سيعلن وما كان مختبئاً سيظهر . لتكمل مشيئة الله .

فطأطأ القس بولس رأسه مردداً — لتكمل مشيئة الله .

وفي صباح اليوم الثاني نهض باكراً يودع القس جبرائيل .

— الى اين يا ابتي ؟

— الى حيفا .

فاحنى القس جبرائيل رأسه قائلاً — رافقتك السلامة .

— الفصل الخامس والعشرون —

وقفت مريم في شرفة البيت بحيفا تنظر تارة الى البحر وتارة الى جبل الكرمل ثم تدور ببصرها وبقلبها الى فريد الواقف قربها يسائلها عن البواخر في المرفأ . البحر فالسفر فالحرية فالجهاد فالاقبال فالمجد . لقد لاحت هذه الكلمات في جوانب نفسها كوميض البرق فانارت هنيهة ظلامها واستفزت الخامد في منازعها .

ونظرت الى الدير على قمة الجبل المقدس فاخذتها رعدة ديت الى صدرها فاثارت كوامن غمها . ذكرت ايامها في الدير بالناصرة فصعدت الزفرات . وذكرت يوم سافرت من هذا الشاطىء ومدام لامار فاستفزتها هزة ايقظت فيها روافد الرغبات والهمات .

وهب هواء البحر فوق البساتين يحمل اليها شذا الورد والفل والياسمين فانعش فؤادها واحيا الماثت من آمالها . فجثت امام والدها تضمه الى صدرها وتقول — شفيت يا حياتي . شفيت يا عمري . وغداً نسافر . غداً . غداً .

وكان زوجها وهو ينتظر قدوم الطبيب جالساً على الديوان في فناء الدار منقبض النفس مستسلماً الى الافكار والهواجس — اذا كانت تفضل ان تقيم ووالدها لم قبلت بعقد الزواج يا ترى ؟ ولكنها معذورة . المرض يذهب بمحاسن الخلق والخلق . وهذا الراهب ابوها . راهب مجنون . سيجيء غداً بيتي يقيم فيه وابنته . على رأسي الابنة . اما الاب ؟ فلا اعرفه ولا احب ان اعرفه . لا والله . حسبي ما اقتبلت وما قاسيت . امي ابي اهلي الناس كلهم ينظرون الي شذراً ويضحكون مني . واذا علموا بامر الراهب يسلقونني بألسنتهم تأكلني نار الشماتة والسخرية . لا والله لا . اذا جاء هذا البيت يجد الباب مقفلاً دونه . ليرجع الى ديره يستر فيه عاره .

جاء الطبيب يلهث وينفخ مستعيذاً بالله من الحر والغبار فجلس على الديوان يستريح ونزع طربوشه يمسح العرق المتصبب من جبينه . وبعد ان

شرب كأس الشربات الذي قدم على صينية من الفضة دخل الى غرفة مريم ففحصها فحصاً بسيطاً جس نبضها · واخذ حرارتها · والقى رأسه على صدرها ثم قال — ظننت الامر خطراً يا خواجه عارف فجئت كما ترى مسرعاً · فلا شيء والحمد لله يزعج البال · التهاب خفيف في شعب الرئة ودرجة واحدة من الحمى ·

وكتب الوصفة وسلمها الى الخادم · وجلس على الديوان يدخن بالاركيلة التي اعدت له ويشرب القهوة وبعد ان هنأ عارفاً وطمأنه وباحثه في القديم والحديث من اخبار الدولة والدول ودع وانصرف

ولكن عارفاً ظل متشككاً · وبعث يستدعي الطبيب الافرنجي الشهير ليتحقق ما قاله الطبيب السوري · فعاد الخادم يقول — الحكيم يكون هنا الساعة الثامنة مساء · والموعد في لغة افرنج الشرق وقت غير محدود · ففي الساعة التاسعة سمع ضجيج سيارة في البستان · سيارة الحكيم ! دخل حضرته والنبيحة في يده · فسلم باللغة العربية التي يحسن شيئاً منها وراح توراً يفحص المريضة فحصاً دقيقاً · وضع قلم الحرارة في فمها واخذ نبضها بيده والساعة في يده الاخرى · ثم فحص لسانها وقبض على لحيته واجماً · ثم استخرج من جيبه آلة فوضعها على صدرها وظهرها يستطلع خبر رئتيها فهز رأسه مرتابا · ثم ضرب بقضيب من النحاس عظم ساقها وقطب جفنيه · ثم سألها ان تمد يدها وتبسط انامل فشاهد فيها اهتزازاً قليلاً فضجرت مريم وتأففت · ولم تجب الطبيب الا على بعض سؤاله المتعددة ·

خرج حضرته وعارف الى فناء الدار يحدثه بامرها وسأله سؤالين امتقع لهما وجهه ولم يدر ما يقول جواباً ·

— مرض الست عَلَى ما يظهر مزدوج · يلزمها راحة بال وهواء نقي وغذاء · لتفتح شبابيك غرفتها ليل نهار · لتلازم سريرها بضعة ايام · وبعدئذٍ انقلها الى الجبال · جبال لبنان حيث يكثر الصنوبر · وسأعودها بعد يومين

ودفع الى عارف الوصفات التي خطتها انامله واملاها عليه علمه الغزير · اربع وصفات لا غير ·

— لتشرب من هذا قبل الاكل ومن هذا بعده · ولتدهن من هذا · ولتستنشق من هذا ·

— وهل من خطر عَلَى حياتها ؟

فبرم الحكيم شفتيه وذوى ما بين عينيه واماله برأسه مفكراً ثم قال — في كل مرض خطر عَلَى الحياة واعل بها · والامل بشفاء الست اكبر من الخطر ·

وامر عند الوداع ان تفرد اواني الاكل والشرب عن اوانيها · فعاد عارف يهز رأسه ويقول — هذا ما توقعت · هذا ما خشيت · وخطر في بال انا يسأل الحكيم سؤالاً آخر فلم يلحقه في الباب · كرّ دولاب السيارة وراحت تهدر خارج البستان ·

وفي اليوم الثاني احست مريم بتحسين في حالها ولم تفتح واحدة من القناني التي وصفها النطاسي الافرنجي الشهير · ونزل عارف الى مكتبه يتفقد اشغاله · فسمع من اقوال الناس والاشاعات عن امرأته وابيها الراهب ما

[illegible] وحاج كثيراً من غيظه . وعزم ان ينقل مريم الى لبنان ريثما [illegible] امرها .

وبينما كان عارف في مكتبه جاء القس بولس وكان قد وصل ذلك اليوم ليتفقد ابنته . فوقف في باب البيت بحيناً كما وقف في ذلك الباب في شارع قصر النيل .

— مستحيل يا محترم . الخواجا في المكتب . والست مريضة والطبيب لا يوذن لاحد بمقابلتها .

— هذا قانون للغرباء .

— لكل الناس يا محترم .

— لا بدّ من ان ادخل .

وهمّ القس بولس بالدخول فاوقفه الخادم قائلاً — لا لوم عليّ خادم يعمل بأوامر سيده . ارجوك ان تخرج .

فصاح القس بولس به — ياو ياو ! ! سيدتك بنتي . بنتي . ألا يوذن لوالد ان يرى ابنته ؟

— لو جاء السلطان اليوم ما اذنت له بالدخول .

فطأطأ القس بولس رأسه والتفى راجعاً فجلس تحت نخلة في البستان ينظر الى البيت والنفس منه حزينة حتى الموت

وكانت لعليفة زيبة قريد قد سمعت ما دار من الحديث بين الخادم والقسيس فجاءت مسرعة تخبر سيدتها . فما شاهدت مريم غيثاً وراحت

نادي اباها فاسقط بالخادم في الباب .

— ومن اعطاك هذه الاوامر ؟

— الخواجا عارف يا ستي

— وهناك داهية انت والخواجا عارف .

وخرجت الى البستان تنادي — ابي ابي ! فسارع القسيس اليها مجيباً وجلس واياها على مجلس في الجنينة تحت النخيل

— ازورك هنا يا بنتي . لا ادخل البيت .

— بلى . بلى . دخيلك ابي

— وغداً ازورك يا بنتي . انا مقيم في النزل ... وساظل في البلد الى ان تشفي — وسازورك هنا في البستان كل يوم .

— ولكن الطبيب اشار بالسفر الى لبنان

— فاسافر واياك كما وعدت .

وفي تلك الاونة جاء عارف عائداً من مكتبه فسلم على القس بولص ولعنه في قلبه . فقالت مريم مخاطبة زوجها — أفلا تريد يا عارف ان يزورني ابي امرك يا سيدي مطاع . امرك مطاع .

ثم ودعت اباها قائلة — سازورك انا في النزل يا ابي . ولا اكلفك الى ما فيه اهانتك .

ودخلت وزوجها الى البيت تصر باسنانها وتحاول كظم غيظها . فلم تنم تلك الليلة الا قليلاً .

وفي اليوم الثاني اشتدت وطأت الحمى عليها . وامتعرت تصعد الحرارة حتى درجة الخطر . فبعثت تستدعي اباها اليها فجاء مسرعاً . دخل الغرفة فوجد عارفاً جالساً الى جانب السرير منكساً رأسه وسمع مريم تهذي . فهتفت اذ رأته — ابي . ابي . اقم عندي . قربي . لا تفارقني . سأموت . سأموت . ولكني اموت سعيدة وانت قربي . الى جانبي . لقد انشرح صدري الان . قد زالت آلامي . شفيت . شفيت . وغداً سافر الى لبنان . غداً صباحاً . انا وايالك وفريد . نقيم في ظلال الصنوبر . سارقص في ظلال الصنوبر . اتلو عليك قصيدة الابنة المزينة البائسة . الله ما اجمل النغم الكمنجة . الكمنجة وحدها . وحدها . انغامها تذيب قلبي . تطرب نفسي . سكرة الحياة ما احيها . سكرة الموت ما ابدعها — ايها الشاعر نفسي الليلة حزينة . حزينة حتى الموت — سأموت واسافر الى باريس . الى باريس . الله ما اجملك يا باريس . تموج شوارعك بالناس . بالازياء . بالابهة . بالجمال . بالفنون . ضجيج شوارعك وقبابك مثل الاغاريد في اذني . العربات والسيارات والجماهير والبوليس في وسط الشارع رداؤه على كتفه وصولجانه الابيض في يده واقف . ما ألطف بوليسك يا باريس وما اعظم سطوته . وانوارك والناس في بهائها رائحين جائين كل الى جنب من يحبه ويهواه . وها قد جاء المعاز بقطيعه (١) ما ألطف قصب المعاز وطنين اجراس

(١) في بعض انحاء باريس يطوف المعاز بقطيعه صباحاً وهو يعزف على الناي فيبين الحليب من الضرع.

القطيع · جآء المعلّم — حليب · حليب · عاتي يا بنت دلوك · قصب الراعي في اسواق باريس · اسمعوا قصب الراعي · وغداً تسمعه في لبنان · غداً · غداً اموت · آه اواه · غداً اموت ولا اسمع صوت اجراس القطيع · عارف استغفرك هات يدك · سامحني · انا مائتة · انا مائتة · خذ يد ابي صافحه واستغفره · استغفره يا عارف · لله ما احلى الصفآء ومـا اجمل القلوب الصافية · اسمعوا صوت القصب · اسمعوا صوت اجراس القطيع · سأرقص لكم على انغامها · سأرقص لكم رقصة الابنة الحزينة البائسة

وهمت ان تنهض من سريرها فلم تستطع · هاج الحنيان سعادهـا · وانهكت الحمى قواها ·

وجآء يومئذٍ النطاسي الافرنجي يعودها فوجدها في تلك الحال فوصف لها الحمامات الباردة ·

ثم جآء الطبيب السوري فوصف الكينا وقال مستعيذاً بالله — الحمامات الباردة تجهز عليها · تجهز عليها · هي نوبة حمى يا خواجا عارف وستزول غداً او بعد غدٍ ان شاء الله ·

— الفصل السادس والعشرون —

وفي لبنان دواء للنفوس شافٍ ، ودواء للابدان ، على ربوة بنية الاديم ، زاهرة الجوانب ، بين قمم تحتها خضراء ، يعطر الصنوبر هواءها ، وتسم فوقها بيضاء ثلجها لا يزول ، في بيت هنالك يحيط الكروم به والغابات ، ويشاهد من احدى شرفتيه الوادي ومن الاخرى البحر ، اقامت مريم وابنها وابوهما ثلاثة اشهر مباركة ، زاهرة ايامها ، صافية لياليها .

وكلما وقفت في الشرفة تنظر الى البحر بعيداً ، وقد بدا في الافق الغربي كسجف ازرق غامق متدلٍ من السماء اللازوردية ، والبواخر والقوارب كالطيور رسمت عليه والسوسن ، كانت تجول المطامع والنزعات في صدرها جولات فتسمعها صوتاً يردد هاتفاً — البحر ، فالسفر ، فالحرية ، فالجهاد ، فالاقبال ، فالمجد !

وكلما وقفت في الشرفة الاخرى تنظر الى الوادي العميق القرار ، المظلم الجوانب والاسرار ، الكثير الاكناف والاخطار ، كان يخيل اليها ان بينها وبين تلك المطامع والرغبات وحدة مثل هذه الوحدة عظيمة مخيفة ، فيستحوذ الكرب عليها .

ولكن صوت القصب هنالك ، على تلك الربوة في الجانب الاخر من الوادي صوت مؤنس سماوي الحي ، ينعش قلبها ، ويطرب نفسها ، فيبعث فيها كامن عزمها ، ويحيي الجميل من اخلاقها ، صوت القصب في المساء وقد سكن الليل وصفا اديمه ، وتلألأت الكواكب في قبة عرشه الفخم

المهيب · انما هو حنين الجبال الى الجبال · والعشاق فيها الى العشاق · بل هو حنين القلوب في سجونها · حنين صغار الطير في وكناتها · حنين النفس الى سرب من النفوس مثلها تنضم اليه فتبسط جناحيها ناشطة جذلة راغبة تقاسم اخواتها السراء في الجهاد والضراء · صوت القصب يناديها · وبينها وبينه وهدة عميقة مخيفة مظلمة · صوت القصب في ذاك الجبل بعيداً · صوت القصب وراء البحار في اسواق باريس ·

وفي ذات ليلة من ليالي الخريف بينما كانت رابوها يصغيان الى حنينه المحزن المطرب المهيج · والقمر وقد احيطت به الغيوم البيضاء يفرش ظلالها للاحلام وارباب الاحلام على المروج وبين الصخور وحول الينابيع نظرت مريم الى ابيها وخاطبته قائلة —

— والآن وقد شفيت يا ابي علي ان اعود الى بيتي · الى بيت نفسي · الى بيت قلبي · الى بيت آمالي واميالي · ولكن عارفاً بحبنا الاسبوع القادم ليعيدني الى بيته · هيهات · هيهات ! ابي · حبيبي · ولي قلبي · لقد شفيت بفضل الله وفضل هذه الجبال المقدسة فاكشف الستار اذاً عن مكنونات صدري · ابي · ان في قلبي ما لا استطيع ان اشارك به انساناً · ولا يمكنني ان احب رجلاً الا اذا محضته حبي · وقد كنت اظن ان القس جبرائيل يزدلف الي ويخادعني ولكنه علمني الا اخادع ولا احابي · حتى ان اعمل بما يوحيه الي ضميري · بما يطالبني به فؤادي · بما يفرضه علي محض حبي · هذا حق · ولقد طالما قال القس جبرائيل — انما الحق فوق السعادة · فاذا

اقمت وزوجي وفي قلبي ما لا استطيع ان اشاركه به . في قلبي ما يمسكها الحب عنه . اكون مخادعة . خائنة . ناعيك ببؤسي وغمي . وبؤسها من جراء ذلك وغمه . فلا سعادة في مثل هذا العمل ولا حق . احلف بالله يا ابي اني اذا اقمت وإياه لا يقيم واياه قلبي . ولا جزء صغير منه . وما الفرق بين البغي والزوجة التي تهب زوجها جسدها وتمسك عنه قلبها بل هناك فرق عظيم يظهر في الخداع والخيانة والنفاق . وعندي ان الامرأة التي تقيم وزوجها على هذه الحال انما هي اشر البوائي واخبثهن .... لقد تمم القس جبرائيل قصده بي . ليهنأ بذلك . والان قد ابعدني الله منه ابوح لك بسري بل بسبب حزني وغمي لما كنت في طبريا . فقد كنت اشعر وانا في ظل القس جبرائيل انني آلة صماء يعالجني كيف شاء . لا رغبة لي ولا رأي . ولا عزم . ولا ارادة . كنت اشعر انني عائشة مائتة . أقرغت نفسي من فضائل الحياة كلها فاملأها نفوذه علي كرباً وحزناً وغماً . واما الان فانت رفيقي ! انت ابي . انت ولي قلبي . وانت ايضاً معذب في شؤونك . تجاذبك الحرية ويجاذبك الاسر . اذا اقمت في هذه البلاد فاما ان تنبذ الثوب واما ان تعيش منبوذاً . وفي كل حال تعيش مغموماً محزوناً مدحوراً مذموماً . وهب انك اقمت في الرهبانية مكرماً معززاً فهل تسعد ابي في بعدك عني ؟ انا وان كنت في سابع سموات الاقبال والمجد لا اسعد ولا انعم في بعدي عنك . بي ذنوبنا تعلمنا الحق . التجارب تأدبنا . وانا بفضلها الان اميرة نفسي . ارادتي في يدي . وقلبي بين جنبي مصان عن الابتذال . حرة . غير مقيدة .

ناشطة · عازمة · طامحة · وساعود منتضية حسام النفس الى مضمار الحياة · وانت ابي الى جانبي · وفريد على صدري · الحرية يا ابي مقدسة · حرية المرأة · وحرية الولد · وحرية الرجل · حرية فريد وحريتك وحريتي · حرية فريد في ظل امه · وحريتك في ظل علمك ووجدانك · وحريتي انا في ظل ابي · نعم · نعم · سيظهر فريد حياتي · وسيظهر فني وسأسعى لك وله ولنفسي ···· صوت القصب يناديني ويناديك · يناديا كلنا · صوت القصب هناك · هنالك · في ذاك الجبل · بل وراء قامات البحار · قد كانت نفسي كالوز محبوسة في الشرنقة فاصبحت الان فراشة حرة · ونفسك ابي كذلك · نفسك كذلك · سلبي اذاً صوت القصب · صوت الحياة · صوت الحرية · صوت الحق · صوت القصب يناديني ويناديك ابي · صوت القصب يناديا كلنا ·

فقال ابوها — كنت اهدي الناس يا بنتي وانت اليوم تهديني · بارك الله فيك · بارك الله فيك ·

وفي اليوم التالي كتبت مريم كتاباً الى الخواجا عارف مبارك بحيفا تكشف له سريرتها وتعلمه بقصدها · وكتاباً آخر الى القس جبرائيل مبارك تشكر له جميل صنعه واحسانه وتخبره انها متبعة في ما هي فاعلة الحق الذي علمها اياه · الحق لا تعلو حتى السعادة عليه ·

وسافرت وابوها وابنها من سوريا بتيمين نور الشمس

(تمت)

ملوك اخوان

—(معملنا بفرنسا)—

اننا نصنع في معملنا بفرنسا اجمل واحدث ما يستعمل فيها من كلوني وفلورنتين وجميع انواع المخروجة شغل اليد

—(معملنا في فنيسيا)—

اما معملنا في فنيسيا نتعمل فيه ادق وافخر البضائع من القيله والفنيس والمطرزات وجميع ما يصدر في ايطاليا من خرج او تطريز لاجل المفروشات

—(معملنا في مدیرا)—

وقد اشتهر معملنا في مدیرا بجودة المطرزات المدیرا التي نشتغلها به . وكلها نقشات من جميع الاشكال .

ولا شك ان اسعارنا تناسب عملاءنا اكثر من اسعار سوانا لان بضائعنا تباع رأساً من محلاتنا للتجار معاملينا وبذلك توفر الاضافات على الاسعار التي يتقاضاها غيرنا .

محلنا الرئيسي في نيويورك ؛ كما ترى في العنوان ادناه ، وله فرع واحد في كندا عنوانه

MALLOUK BROTHERS
47-49 WEST STREET
NEW YORK

الزيتون في كاليفورنيا

ذوقوا واحكموا

ليس من ينكر كثرة الصعوبات التي تصادفها من جراء الحرب الاوربية بانقطاع المواد الغذائية السورية عن هذه البلاد الاميركية . ولما كنا قد اعتدنا في السابق ان نحصل على كل اصناف السماقة العربية من سوريا لم نعد نبالي بالاهتمام لايجادها هنا مع ما كنا نتحمله من الصعوبات والمصاريف في مسألة الشحن . على انه وقد حالت الظروف في هذه الايام دون الحصول على بضائعنا وسدّت الطرق من كل جانب في وجوهنا فتوهم ابناء الوطن ان لا لذة تعادل لذة الواردات الوطنية وجدنا في الامتحانات والاهتمامات التي نجربها دائماً وحباً براحة وخدمة عملائنا الكرام طريقاً لارضائهم فقد ذهب احدنا الى كاليفورنيا حيث اهتم بضمانة كروم الزيتون هناك وصرنا نستورده الى محلنا الخاص فنخرج من انواعه زيتوناً اسود ومرصوصاً بزعتر ومن كان في شك فما عليه الا التجربة كما وانه عندنا جميع انواع السماقة السورية وسائر المشروبات الروحية وهذا عنواننا .

تامر كنعان معلوف وشركاه

T. K. MALOUF & Co.

79 Washington St. New York

صيدلية شركة فلسطين

١٥	جربوا الشربة العجيبة للرجال والنساء والاطفال اشتهرت بلذتها وفعلها الغريب	
٢٥	» حبوب الدكتور تنديك مسهلة مليفة تزيل وجع الرأس والدوخة	
٥٠٠	» حبوب خصوصية لتقوية الاجسام الضعيفة	
٢٠٠	» الشربة المندية لـ ـ ودة الوحيدة مكفولة	
٢٥	» البودرا التي تزيل الشعر من الجسم والمكفولة من كل ضرر	
٥٠	» صبغة الشعر الخالية من حجر جهنم والمكفولة انها تعطي الالوان الطبيعية من اي لون شئت	
٢٥	» البودرا الشهيرة الخالية من كل غش والتي تستعمل لجنسين « الجنس اللطيف والجنس النشيط » وهي دواء شافي امراض الرجلين	

لدينا سائر اصناف الروائح الشهيرة على تعدادها

لا تنجيبوا بالخطأ اذا قلنا اكتشفنا دواء جديداً لنمو الشعر سريعاً للراس وتقويته وليس على الذين يريدون انماء شعرهم الا ان يجربوا دواءنا هذا العجيب ليتحققوا صدق ما نقول والتجربة خير برهان .

عندنا دواء مشهور يزيل الشعث والكلف من الوجه .

ومن المرطبات لاجل الصيف جميع المشروبات مع ايس كريم امبركاني وايس كريم سوري مع الفستق .

مدير الشركة

فلاديمير حلبي

PALESTINE DRUG CO.

28 RECTOR STREET NEW YORK

TELEPHONE { 9118 4884 BORO } RECTOR

مركز البوسطه

حديث وجيز

أأنت من مدخني السيكارات ؟

اذا أجبت « بنعم » فهاك سؤالاً آخر .

ما هو النوع الذي تدخنه ؟ — وقبل ان تسمع جوابك نسألك ان تسمح لنا ان نقول

اذا كنت تدخن السيكارات البرصونية فلا حاجة لشرحنا لك عنها ، وان كنت تدخن غيرها فجربها وقابل بينها وبين سواها

السيكارات البرصونية مصنوعة من التبغ التركي الخالي من النش

انها من اقدم واشهر انواع السيكارات المعروفة ، ومدخنوها يشهدون لها بجودة وسلاسة طعم دخانها .

واتلك تحصل عليها متى شئت فاطلبها تجدها لديك حالاً .

A. N Barson & Co.

40 West Street New York

بدران اخوان

والمجوم الروسي

ان روسيا في هذه الحرب العظمى قد برهنت على قوة واقتدار كانا كامنين في جسمها الواسع وشعبها الامين . ولا غروَ ان امة أخرجت من احشائها رجالاً عظاماً منهم القواد سوفوروف وكوتوزوف ومنشيكوف وسكوبيليف والفراندوق نقولا وبروسيلوف والفلاسفة تولستوي وسولوفيوف وباكونين والكتبة المتفننين تورغنيف ودوستويفسكي وتشيخوف وغوغل والمصلحين المنظام بطرس الاكبر وسبيرانسكي وكاترينا الثانية وغيرهم من المشاهير لحي امة جديرة بان تبدو منها القوة الطاحنة

ونحن قد اظهرنا في عالم التجارة من الثبات والقوة ما جعلنا ان ندحر اعظم الصعوبات . وبذلك قد برهنا على اقتدارنا التجاري كما برهنت روسيا على اقتدارها الحربي . ونحن مستعدون ان نلبي طلب كل عميل ونرضيه كما ان روسيا مستعدة ان تكتسح بلاد اعدائها ولو بغير رضى . اما بضائعنا المذخورة فهي من قمصان النوم والانقلب شميز والكورست كفر تعطريز اليد والوست والكمونا على اختلاف انواعها والملبوسات النسائية كافة

BADRAN BROS.

87 Greenwich Street New York

الى تجار اميركا الجنوبية

— محل ميخائيل عريضه في نيويورك —

قد وسع دائرة اشغاله المعروفة واصبح يتعاطى تصدير البضائع الاميركية من جميع اصنافها الى سائر الانحاء

وهو مستعد

أن يقوم بخدمة كل المحال التجارية السورية في اميركا الجنوبية والوسطى وجزائرها استعداداً يرضي اصحاب البيوت الكبيرة والصغيرة التجارية

مقدرة هذا المحل المالية ،

وخبرته بالسوق الحالية ،

ومعرفته الاصناف المرغوبة ،

وتسوقه البضائع من معاملها رأساً ،

جعلته ان يحوز ثقة كثير من المحال التجارية الكبرى في اميركا الجنوبية في وقت قصير

فاكتب اليه

مستعلماً — أو مستشيراً — أو طالباً — أو مجرباً .

ولك الخيار بعد ذلك ان تعامله او تعامل سواه

MICHAEL N. ARIDA

118 W. 22nd Street New York

محل حداد وعطيه

اذا كنت بحاجة الى ورق للف او خيطان او علب كرتون او اكياس او اي جنس كان من الورق وما يصنع منه . او اذا كنت بحاجة الى ورق مكاتيب ومغلفات ودفاتر وكل لزوم المحلات التجارية خابرنا اولاً ونحن نرضيك بالاسعار والمعاملة والاجناس الجيدة . كل هذه الاصناف موجودة عندنا بكميات كبيرة دائماً ومن كل القياسات .

كذلك نعلن الذين خارج الولايات المتحدة اننا نشحن الورق الى اي جهة كانت بكميات كبيرة او صغيرة وخصوصاً الى اميركا الوسطى والجنوبية ومصر . اطلبوا الاسعار مع كافة التعليمات .

HADDAD & ATEYEH

54-86 Washington St, New York City

— اعلان مفيد —

السيدة الحاذقة ملكه نفش هي قابلة رسمية حائزة على الشهادة من حكومة نيويورك في فن التوليد . وقد مارست عملها بنجاح مدة سنوات طويلة اكتسبت بها اقبال الجمهور ورضاهم .

وهي تنشر هذا الاعلان لتعلم الجمهور انها مستعدة لتلبية كل سيدة ليست قادرة على الدفع . وهذا عنوانها .

—(ملكه نفش)—

118 Court St. Brooklyn, N. Y.